الفصل الثالث

الدعم اليمني المالي والعسكري

- **المبحث الأول: الدعم المالي.**

أولاً: الدعم المالي من اليمن خلال الحكم الأيوبي.

ثانيًا: الدعم المالي من اليمن خلال الحكم الرسولي.

- **المبحث الثاني: الدعم العسكري.**

أولاً: العتاد والخيل.

ثانيًا: المقاتلون.

- **المبحث الثالث:** دور اليمن في حفظ أمن المنطقة.

أولاً: اليمن ودورها في ضمان استقرار الحجاز وأمنه.

ثانيًا: اليمن ودورها في تأمين الحركة الملاحية في البحر الأحمر.

الدعم اليمني المالي والعسكري

إثر اجتياح الصليبيين سواحل بلاد الشام والمدن الفلسطينية الداخلية سعى هؤلاء إلى دعم موقفهم العسكري وتفوقهم على الكيانات السياسية في المنطقة، وذلك من خلال إعداد جيش قوي ومدرب كامل الإعداد والتسليح لغرض ضمان تفوقهم العسكري على القوى الإسلامية التي تحيط بهم، والتي تعاني التفكك والانقسام فيما بينها، وقد اعتمد الصليبيون في ذلك على الدعم غير المحدود من أوروبا "...فمنذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م) لم يمر عام واحد من دون مجيء جموع صليبية جديدة..."[(١)]، ولم يكن سبب وفرة هذه الجموع إلا تشجيع ملوك مملكة القدس اللاتينية للهجرة إلى الأرض المقدسة، وترحيبهم بهؤلاء الوافدين وحرصهم على رفد قواتهم بهم، كما سعى الصليبيون إلى ضمان تعاون النصارى المحليين معهم، بل - إن لزم الأمر- استئجار المرتزقة من التركمان وبدو العرب القاطنين جنوب فلسطين[(٢)].

كما قدمت أوروبا دعما ماليًا سخيًا للمؤسسات الدينية العسكرية عند الصليبيين، الأمر الذي منح تلك المؤسسات أملاكًا واسعةً في فلسطين بل في أوروبا نفسها[(٣)]، وقد بلغ من سخاء ملوك أوروبا ودعمهم الصليبيين في

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٢٣.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ قسم١/ ص٢١، قسم٢/ ص٤٧٠؛ هامرتون: تاريخ العالم، مج٥/ ص١٩٣،

Munro, D. C: The Kingdom of the Crusaders, New York,1936, pp. 106-107, 120-121.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٣٧٩- ٣٨٢؛ رنسيمان: المرجع نفسه، ج٢/ قسم١/ ص٢١- ٢٢.

الشرق أن تعهد هنري الثاني ملك إنجلترا (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م - ٥٨٤هـ/ ١١٨٩م) بإعداد مائتي فارس في فلسطين ورعايتهم، وقدم للهيئات الدينية العسكرية في فلسطين مبالغ مالية على شكل وديعة لصالح الحرب الصليبية استفاد منها فيما بعد ابنه ريتشارد قلب الأسد فتعزز بها موقفه المالي في أثناء الحملة الصليبية الثالثة[(١)]، كما تعهد الإمبراطور البيزنطي إلكسيوس (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) بالإنفاق على خمسمائة فارس[(٢)].

وخلاصة القول أن الصليبيين في بلاد الشام ظلوا متصلين بأوروبا (الرحم الأصلي للحروب الصليبية)، ويتلقون منها الدعم والمدد بمختلف صوره وأشكاله ماديًا وعسكريًا، حتى بلغ من حماسة ملوك أوروبا للحروب الصليبية أن قاد هؤلاء الملوك خمس حملات صليبية ضخمة بغض النظر عن الدوافع الدينية والسياسية لكل منهم[(٣)].

وبفضل هذا الدعم المالي والعسكري من أوروبا فضلا عما فرضه الصليبيون على تجارة المرور في المنطقة من ضرائب بعدما تمكنوا من الاستيلاء على أهم المنافذ التجارية فيها، صارت مملكة القدس اللاتينية والإمارات الصليبية التابعة لها قوة مرهوبة الجانب تشمل معظم فلسطين وكل ساحل بلاد الشام، بل امتد نفوذهم إلى وادي عربة حيث أقام الصليبيون

---

(١) رستون (جيمس): مقاتلون في سبيل الله (صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة) تر: رضوان السيد، مكتبة العبيكان - الرياض، ط١- ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٦٥.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/ قسم١/ ص٢١٠ .

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٤٨٥، ج٢/ ص٦٦٤، ٧٩١، ٨٣٢، ٩١٤؛ قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٦٦- ٧٠، ١١٧- ١١٩- ١٣٣- ١٣٦.

حصونًا في غاية المناعة تمكنوا بواسطتها من قطع الطريق بين مصر والشام، مما أدى إلى فشل أية محاولة للتعاون أو توحيد الجهود العسكرية بين أكبر قوتين إسلاميتين في المنطقة(١)، كما تمكن الصليبيون من إقامة قاعدة عسكرية لهم على الشاطئ الشمالي للبحر الأحمر في أيلة، فصار الطريق الذي يمر بين دمشق وبلاد العرب ومصر تحت سيطرة الصليبيين، وبذلك يكونون قد مهدوا لتنفيذ مخططاتهم المستقبلية في البحر الأحمر(٢).

وأما من جهة المسلمين فقد كانوا يعيشون حالاً من التفكك والانقسام السياسي والصراع العسكري فيما بينهم، الأمر الذي أهدر طاقات الأمة وإمكاناتها المالية والعسكرية في غير مقارعة الصليبيين والتصدي لهم، فبات من الضروري توحيد الإمكانات والتنسيق الكامل بين القوى الإسلامية كافة لخلق قوة عسكرية موحدة قادرة على مقارعة الصليبيين وكسر تفوقهم العسكري في ظل الدعم الأوروبي غير المحدود للإمارات الصليبية في بلاد الشام، ومن أهم متطلبات ذلك المشروع العسكري الضخم توفير موارد مالية كافية لبناء تلك القوة العسكرية الإسلامية، وتطويرها لتتمكن من التصدي بكفاءة لقوات الصليبيين على وفق أحدث أساليب الحرب في ذلك العصر. وقد بلغت مصروفات الجيش على عهد صلاح الدين الأيوبي أكثر من أربعة ألف ألف دينار(٣)، وهو مبلغ ضخم في حسابات ذلك العصر لم تكن موارد

---

(١) طقوش: تاريخ الفاطميين، ص ٤٦٣؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص ٢٥٧، ٢٦٥.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ قسم١/ ص ١٥٨-١٦١؛ عاشور: المرجع نفسه، ج١/ ص ٢٥٧.

(٣) المقريزي: الخطط، ج١/ ص ٨٦-٨٧

مصر وحدها قادرة على توفيره من دون الإضرار بالبنية التحتية للبلاد، أو إرهاق الناس بالضرائب والمكوس، الأمر الذي كان يخالف سياسة نور الدين وصلاح الدين من بعده[(١)].

ومن هذا المنطلق جاء توسع نور الدين ورجاله من أمثال صلاح الدين وضمهم لمزيد من الأقاليم، وذلك لإيجاد مورد مالي يستعين به في جهاد أعداء الله، فقد ذكر أبو شامة أن من أهم الأسباب التي أدت إلى ضم نور الدين لمصر هي أنه كان "...يؤثر أن يقرر له فيها مال للحمل، يستعين به على كلف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل..."[(٢)]، والشيء نفسه ذكر عن سبب ضم صلاح الدين لليمن، فقد ورد على لسان أخيه توران شاه قائد حملة اليمن "...ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها..."[(٣)]، وسنتناول فيما يأتي أبرز ما ذكرته المصادر عن الدعم المالي الذي قدمته اليمن للمجاهدين في مصر والشام.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١/ ص ٦٧، ج٢/ ١٢٠؛المقريزي: المصدر السابق، ج٢/ ص ٢٣٣.
(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج٢/ ص ٢٣٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٣٨.

المبحث الأول

الدعم المالي

في سنة (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م) توفي الأمير أبو حسان أسعد بن أبي يعفر الحوالي[١]، وترك وصية جاء فيها أنه رصد للمجاهدين في ثغر طرطوس مبلغًا من المال كل عام[٢]، وقد كشفت هذه الوصية عن الإحساس العميق لدى أهل اليمن بالمسؤولية تجاه إخوانهم المسلمين المرابطين على ثغور ديار الإسلام، الذين كانوا يتعرضون لأشد هجمات الإمبراطورية البيزنطية ضراوة بقيادة أباطرة الأسرة المقدونية[٣]، الذين استغلوا حالة الضعف

(١) هو أبو حسان أسعد بن أبي يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر بن عبدالرحمن الحوالي، تولى حكم دولة بني يعفر في صنعاء وما حولها أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي حتى سنة (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م)، وكانت مدة حكمه مضطربة ومليئة بالأحداث من تمردات وحروب؛ انظر: الخزرجي، العسجد، ص٣٤- ٤٥.

(٢) الأكوع (محمد بن علي): الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٣٢هـ، دار الحربة - بغداد، ط١- ١٩٧٦م، ص٢٥٥.

(٣) الأسرة المقدونية (٢٥٢هـ/ ٨٦٧م - ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) أسرة من أصل مقدوني تمكنت من حكم الإمبراطورية البيزنطية لأكثر من قرنين من الزمان، تمكنوا خلالها من إيجاد كثير من الحلول لمشاكل الإمبراطورية الداخلية والخارجية سواء ما كان منها على الجبهة الأوربية أو الجبهة الإسلامية، فاستردت الإمبراطورية قوتها الاقتصادية والعسكرية، وتوحد في عهدها المجتمع دينيًا بانتصار التيار المؤيد لعبادة الصور نهائيًا، وقد شن أباطرة الأسرة المقدونية حربًا على المسلمين تمكنوا خلالها من الاستيلاء على عدد من مدن الثغور الشمالية مثل أنطاكية، وانتزعوا جزيرة كريت من المسلمين، كما تمكنوا من وضع حلب تحت حمايتهم، وتعد مدة حكم الأسرة المقدونية من أزهى مراحل تاريخ الإمبراطورية البيزنطية؛ انظر: رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص٤٥- ٥٣؛ زكار (سهيل): الحروب الصليبية، دار حسان للطباعة والنشر - دمشق، ط١- ١٩٨٤م، ص٦٤-٦٥.

والانقسام التي يعيشها المسلمون آنذاك، ويهمنا في المقام الأول أن نستند إلى تلك الوصية لإثبات أن تفاعل أهل اليمن مع بقية أنحاء بلاد الإسلام لم يتوقف بتوقف موجة الفتح الإسلامي في نهاية القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وإنما استمر طوال القرون التالية، وإن حدّ منه طبيعة الأوضاع التي مرت بها اليمن في تلك الحقبة.

وأما بالنسبة إلى تفاعل أهل اليمن ضد الغزو الصليبي الذي تعرضت له ديار الإسلام ومقدار الدعم الذي قدموه لإخوانهم المجاهدين؛ فهي مسألة تتعلق بطبيعة الأوضاع السياسية في اليمن خلال مدة الحروب الصليبية، فقد كان الصراع السياسي والعسكري الذي ساد اليمن طوال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي قد ألقى بظلاله على أي شكل من أشكال التفاعل وتقديم الدعم المالي للمجاهدين في مصر وبلاد الشام، حتى إن مظاهر التبعية من أموال وهدايا التي اعتادت القوى الإسماعيلية في اليمن إرسالها إلى القاهرة لم تعد ترسل بانتظام، وإن أرسلت فقد تنهب في الطريق بسبب تردي الأوضاع الأمنية في اليمن؛ نظرًا لعدم وجود سلطة مركزية قادرة على ضبط الأوضاع المتدهورة ووقف النزاعات المسلحة التي تشهدها البلاد، التي تشتت مواردها بين الدول المتغلبة والمتصارعة فيما بينها، وضعف كل من الخلافتين العباسية والفاطمية وتدهورهما وعجزهما عن بسط نفوذهم الفعلي على اليمن، فلا عجب أن نسمع بما قام به رسل الخليفة الآمر بأحكام الله إلى السيدة بنت أحمد للقبض على ابن نجيب الدولة، إذ قاموا بإغراق رسول السيدة إلى الخليفة الآمر، ومن ثم عدم معرفة مصير هديتها إليه التي قدر الجوهر فيها بأربعين ألف دينار(١).

---

(١) عمارة: المفيد، ص١٣٨؛ الخزرجي: العسجد، ص١٧٠.

أولاً- الدعم المالي من اليمن خلال الحكم الأيوبي:

بعدما تمكن صلاح الدين الأيوبي من حكم مصر والقضاء على الدولة الفاطمية صار الطريق إلى اليمن مفتوحًا لضمها إلى الجبهة الإسلامية الموحدة التي بناها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين من بعده، وأتم بناءها صلاح الدين فصارت اليمن جزءًا من دولة إسلامية واحدة هي الدولة الأيوبية التي أخذت على عاتقها مسؤولية القضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام، مستعينة بذلك بما توفر تحت يدها من الموارد المالية المتدفقة عليها من الأقاليم التابعة لها.

ويمكن تقدير مدى أهمية الموارد المالية المحصلة من اليمن بالنسبة للأيوبيين من خلال النقاط الآتية:

* ضخامة الميزانية التي أنفقها الأيوبيون على قواتهم في اليمن لضمان تبعيتها لهم، مما يحمل دلالة واضحة وصريحة على الفائدة العائدة عليهم ماليًا من إقليم اليمن.

* الإشارات المتفرقة التي ذكرتها المصادر عن الأموال المحصلة من اليمن خلال الحكم الأيوبي لليمن.

* اهتمام السلطات الأيوبية في القاهرة بمتابعة الأوضاع في اليمن ومقدار ولاء النواب والولاة فيها للحكم الأيوبي، ومدى حرصهم على المال العام المحصل من اليمن ومتابعة الأيوبيين لصور وأشكال الاختلاسات كافة والقضاء عليها.

١- بالنسبة إلى ما يتعلق بميزانية إعداد تلك الحملات إلى اليمن، التي

كانت تستنزف الخزانة الأيوبية، في وقت كانوا في أشد الحاجة إلى تلك الأموال والعدة لولا أنه كان من المتوقع أن يتم تحصيل أضعاف ما بذلوه من خلال ضمهم لإقليم مهم مثل اليمن بكل موارده وثرواته وإمكانياته، فقد ذكرت المصادر أن حملة المعظم توران شاه التي كلفته مغل - المحصل من الأموال - قوص لسنة كاملة[١] ضمت حوالي ثلاثة آلاف فارس[٢]، وكذلك أسطول يحمل كثيرًا من الأزواد والعدد وآلات الحصار[٣]، فهل كان ضم اليمن لسلطان الأيوبيين يستحق تلك الأعداد الهائلة من الفرسان - عماد حروب ذلك العصر- وذلك الكم من العدد والآلات، بل المجازفة بالجيش الأيوبي في إقليم يعج بالقوى المعادية لهم وترفض الخضوع لسلطانهم، مما اضطرهم إلى خوض غمار حروب طاحنة كادت تأتي عليهم لولا حنكة قائدهم توران شاه وثبات صفوفهم وتفرق قوى خصومهم تحت زعامات متعددة.

لقد ستغرق إعداد حملة توران شاه سنة كاملة، تم في أثنائها ما يتم عادة في مرحلة الإعداد لحملة كبيرة من توزيع الأسلحة والدروع على الجنود، وإعطاء كل واحد منهم عطاءه لشراء مستلزماته ونفقاته الشخصية ونفقات أهله[٤]، وقد اعترف صلاح الدين بضخامة نفقات تلك الحملة في رسالته إلى الخليفة العباسي يعدد فيها منجزاته وفتوحاته ومنها قوله: "...وكان باليمن ما علم من أمر ابن مهدي الضال الملحد... فأنهضنا إليه

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٧٤.
(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٣٢١.
(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، مج٧/ ص٢٣٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٧٤.
(٤) العسيري: الحياة السياسية، ص٧١.

أخانا بعسكره بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة وأسلحة رائعة..."[1]، ولم يكن صلاح الدين الأيوبي ليوافق على مثل تلك المجازفة لولا ما في ضم اليمن إلى دولته من مصلحة في دعم الجبهة الإسلامية الموحدة.

وأما حملة الأمير صارم الدين خطلبا في سنة (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) فقد كانت حملة بحرية كبيرة ضمت كثيرًا من المراكب لحمل الأزواد والعلوفات والأسلحة، فضلا عن حراريق[2] مشحونة بالرماة، وبلغ عدد الجند خمسمائة جندي[3]. وكانت حملة سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن سنة (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م) حملة برية بلغ عدد أفرادها ألف فارس وخمسمائة من المشاة[4].

وبذلك يكون قد بلغ إجمالي الجيش الأيوبي في اليمن أربعة آلاف فارس وألفين وخمسمائة من المشاة، فضلا عن عدد لا بأس به من قطع الأسطول، وكثير من الآلات الحربية المستخدمة في الحصار ودك الحصون واختراقها، إن بقاء مثل هذا العدد الكبير من القوات الأيوبية في اليمن مع عدد من أكفأ الأمراء والقادة؛ في وقت اقتربت فيه ساعة المواجهة الحاسمة مع الصليبيين ليحمل دلالة واضحة على أهمية اليمن موردًا ماليًا لدعم الجبهة الإسلامية وبناء قوة عسكرية قادرة على التصدي للصليبيين.

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٣٦٢.

(٢) حراريق (والصواب حراقات): جمع حراقة، وهي نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو؛ انظر: أبو خليل (د. شوقي): الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر- دمشق، ط٢- ٢٠٠٢م، ص٣٧٣.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١/ قسم١/ ص٧٤- ٧٦؛ العسيري: المرجع السابق، ص٩١-٩٢.

(٤) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٧٨، الخزرجي: العسجد، ص١٥٢.

٢- الإشارات المتفرقة التي ذكرتها المصادر عن الأموال المحصلة من اليمن، فقد ذكرنا ما ورد على لسان توران شاه من أن الغرض من فتح اليمن هو عمارة البلاد والانتفاع بدخلها، ومن هذا المنطلق جاءت تنظيماته الإدارية وتعيينه النواب الذين يدينون له بالولاء الكامل سواء أكان في اليمن أم خارجها - حتى لا ينفرد واحد بحكم اليمن ويستقل - وبعد فراغه من تنظيم الإدارة الأيوبية في اليمن واستخلاصه الأموال والكنوز ممن بسِجْنِهِ من أمراء وسلاطين الدول التي تغلب عليها[1]، استأذن أخاه السلطان صلاح الدين في القدوم إليه فأذن له بسبب حاجته الملحة إليه في حملته الكبرى لتوحيد مملكة سيده نور الدين محمود تحت لوائه، فقدم إليه في سنة (٥٧١هـ/ ١١٧٥م) قبيل معركته مع المواصلة ومن تحالف معهم من الصليبيين حاملاً معه أموالاً جزيلة من إقليم اليمن[2].

وأما نواب توران شاه في اليمن فقد ظلوا على ولائهم لمولاهم الذي تولى عددًا من المناصب في دولة أخيه، منها النيابة عن أخيه السلطان على مدينة دمشق مدة من الزمن، ثم على الإسكندرية حتى وفاته سنة (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)، وفضلا عن ذلك ظل هو النائب في حكم اليمن، فكان نوابه حريصين على إرسال الأموال إلى مولاهم كل عام، التي كان ينفقها كلها في مواطن الجهاد ولا يدخر منها شيئًا لنفسه[3]، حتى إنه توفي وعليه دين يقدر بـمائتي ألف دينار مصرية قضاها عنه أخوه صلاح الدين[4].

(١) الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥٢٠؛ الخزرجي: العسجد، ص١٥٢.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٣١٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٨٥؛ الخزرجي: العسجد، ص١٥٦.
(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج٧/ ص٢٨٥.

وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر شيئا عن مقدار تلك الأموال الواصلة من اليمن؛ فإنه استنادًا إلى ما ذكرته المصادر عن الأموال المحصلة من عدد من الأقاليم والمدن اليمنية لصالح الدول التي حكمت قبيل الحكم الأيوبي في اليمن؛ تكون النتيجة الطبيعية أن إجمالي الأموال المحصلة من إقليم اليمن والمرسلة إلى توران شاه بلغت الملايين من الدنانير(١).

بعد وفاة توران شاه تعرضت الإدارة الأيوبية في اليمن إلى خطر كبير بسبب صراع النواب واقتتالهم فيما بينهم، الأمر الذي دعا صلاح الدين إلى إرسال حملتين لضبط الأمور في اليمن، تمكنت الأخيرة من القضاء على النواب المتصارعين وإعادة ضبط الأمور على يد سيف الإسلام طغتكين "...الذي قرر قواعد الملك باليمن ووضع الضرائب للسلطان وقنن القوانين..."(٢)، فعاد الوضع المالي لليمن إلى الانضباط تحت الإدارة الصارمة لطغتكين، وعلى الرغم من أن المصادر المتوافرة بين أيدينا لم تذكر شيئًا عن إرساله الأموال إلى السلطان؛ فإن سكوت الأخير عنه طوال المدة التي حكمها في حياة أخيه (٥٧٩هـ/ ١١٨٣- ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) يدل على رضا السلطان عن أخيه وسياسته المالية في اليمن، حتى إن الكتب التي أرسلها السلطان إلى أخيه طغتكين تحمل ثناء السلطان عليه وأوامره إليه بالإكثار من الأموال التي يرسلها من اليمن(٣).

بعد وفاة سيف الإسلام طغتكين لم يستقر الحكم في اليمن لأبنائه، إذ سرعان ما قتل أكبر أبنائه المعز إسماعيل على يد جنده، واغتيل ابنه الناصر

---

(١) انظر: الفصل الأول ص٤٤. (٢) الخزرجي: العسجد، ص١٦٨.
(٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص١٩٠- ٢٠٢، ٣٥٣.

أيوب مسمومًا، في الوقت الذي كان فيه الأيوبيون في مصر والشام منشغلين بالصراع فيما بينهم، حتى إذا ما تولى السلطان العادل إرث بني أيوب أمر ابنه الكامل أن يجرد حملة إلى اليمن على رأسها حفيده المسعود بن الكامل، الذي تمكن بعد حروب كثيرة من ضبط الأمور باليمن، ومن ثم عاد إلى أبيه بمصر وقد "...حمل معه جميع خراج اليمن من الصفراء والبيضاء والجواهر الغالية والطرف والغلمان والجواري..."(١)، وقد بالغ بعض من المؤرخين في تقدير حجم تلك الأموال حتى ذكر أنها بلغت حمولة خمسمائة مركب(٢)، وأقرب تقدير لحجم تلك الأموال التي حملها معه أنها بلغت حمولة أكثر من سبعين سفينة(٣)، وحوت فيما حوت مائتي خادم وثلاثة أفيال هائلة وأحمال عود وند ومسك وعنبر(٤)، وربما كانت تلك آخر ما وصل إلى الأيوبيين من أموال اليمن، إذ سرعان ما توفي المسعود في مكة، واستقل بنو رسول بعده بحكم اليمن.

٣- اهتمام السلطات الأيوبية في القاهرة بأموال اليمن ومتابعة النواب ومحاسبتهم، فهو أمر أشارت إليه كثير من المصادر، فمن ذلك القضية التي أثيرت حول مشروعية الأموال التي جمعها الأمير مبارك بن كامل بن منقذ الكناني نائب الملك المعظم توران شاه في زبيد، الذي استأذن مولاه توران شاه في العودة إلى مصر، واستناب بزبيد أخاه حطان بن كامل، وظل مبارك

(١) الخزرجي: العسجد، ص١٨٩.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٢/ ص٣٣١.
(٣) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٤١.
(٤) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٤٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص١٠٥.

مع شمس الدولة حتى وفاته، وعندئذ وجد خصومه الفرصة مواتية بعد وفاة الأمير المسؤول عنه والمشرف عليه، فسعوا به عند صلاح الدين بأنه "...أخذ أموال اليمن وأدخرها..."[١]، وأنه "...استوعب مال زبيد، وأن له كنوزًا لا تبيد..."[٢]، فصار مبارك بن منقذ تحت مراقبة خصومه حتى سنة (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) عندما عمل مأدبة عظيمة دعا إليها أعيان الدولة الصلاحية، وأرسل أصحابه يشترون ما يلزم من أطعمة وغيرها، ويبدو أن المشتريات بلغت مبلغًا عظيمًا، مما لفت إليه الأنظار، فقيل لصلاح الدين "...إن ابن منقذ يريد الهرب، وأصحابه يتزودون له، ومتى دخل اليمن أخرجه عن طاعتك..."[٣]، وبذلك تجاوزت التهم الموجهة إليه مجرد الاختلاس والنهب للأموال المحصلة من اليمن، بل صار يخطط للهرب إلى اليمن والاستقلال بها، الأمر الذي يشكل خسارة فادحة لصلاح الدين وحرمانه من المورد المالي الجديد الذي وفرته له فتوحات أخيه توران شاه في اليمن، فأمر صلاح الدين بالقبض عليه، وأجرى معه تحقيقًا أسفر عن إطلاق سراحه وتبرئته من تهمة الخروج على صلاح الدين والاستقلال باليمن، إلا أن الشبهة حول مشروعية ما جمعه من أموال ظلت قائمة مما اضطره إلى أن يدفع لصلاح الدين ثمانين ألف دينار مصرية تزكية لماله ويعود مولاه إلى حسن ظنه به[٤]. ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين لم يعدّ ما قبضه من أموال مبارك بن منقذ نوعًا من المصادرة، وإنما هو قرض ودين، حيث كتب بخط يده أن المبلغ دين في ذمته قضى جزءًا منه ببيعه

---

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٨٦. (٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٩٣.
(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، مج٧/ ص٢٨٧.
(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج٧/ ص٢٨٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٩٣.

جميع أملاكه بمصر لمبارك بن منقذ بثلاثين ألف دينار كرمًا من السلطان، وعرفانًا منه بجميله(١).

وفي موضع آخر يذكر أبو شامة نقلاً عن العماد الكاتب الأصفهاني أنه وقف على ثلاثة كتب للقاضي الفاضل(٢) عن الملك العادل النائب عن السلطان بمصر إلى الولاة باليمن، يعلمهم فيها أن ملوك الشرق - يقصد الأمراء في بلاد الشام - قد دخلوا في طاعة السلطان، وأنه عازم على القدوم إلى مصر وصوم رمضان بها والحج إلى بيت الله الحرام منها، ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكة من المال والأزواد والخلع مما تشتمل عليه تلك الأعمال(٣).

وإثر وفاة صارم الدين خطلبا المفاجئة وعودة الصراع بين النواب زادت مخاوف صلاح الدين وإخوته من خسارة اليمن، ويبدو أن أخاه طغتكين كان أكثرهم إحساسًا بمخاوف أخيه تجاه اليمن، حتى إنه أوعز إلى الشاعر ابن سعدان الحلبي(٤) أن يلقي قصيدة أمام السلطان يعرض فيها بإنفاذ سيف

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٩٣.
(٢) القاضي الفاضل (أبوعلي عبدالرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن البيساني القضاعي): من أصل يمني، كان أبوه قاضيًا بعسقلان، فأرسل ولده إلى مصر زمن الفاطميين، فاشتغل بها بكتابة الإنشاء على أبي الفتح قادوس وغيره، حتى برع وفاق أهل زمانه، ولما استقرالملك لصلاح الدين جعله كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وولده، وتساعدا في فتح الأقاليم والبلاد: هذا بحسامه وسنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه، وكان وافر المال كثير الصدقات، حسن طاهر القلب والسريرة، توفي سنة (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م)؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٣/ ص١٥٨- ١٦٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص٢٦.
(٣) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٦٨.
(٤) ابن سعدان: لم نعثر له على ترجمة فيما توافر بين أيدينا من مصادر.

الإسلام طغتكين لرأب الصدع في اليمن قال فيها[١]:

جرِّدْ لها السيف الصقيل فتنة فالسيف لا يذخر إلا للفتنْ
شُدَّ به أزر العلا فإنه نعم فتى من شرع الجود وسن
القائل المسمع في مقاله والصادق الندب الأمين المؤتمن
بادي الفؤاد كيفما سيَّرته حنَّ إلى دار الوغى ثُمَّت أنْ
قد فسد الملك وقد طال العدى واقتسموا بعدك أموال اليمن

وبيت القصيد هنا هو قوله "واقتسموا بعدك أموال اليمن" لما يحمل من دلالة على أهمية أموال اليمن بالنسبة إلى ميزانية الدولة الأيوبية، ومدى استعداد صلاح الدين لعمل المستحيل في سبيل الحفاظ على ذلك المورد المالي المهم.

وقد استجاب صلاح الدين لحماسة أخيه طغتكين، فأرسله إلى اليمن، فكان من أولى اهتماماته القضاء على مختلف أشكال الاختلاسات والنهب لأموال اليمن التي قام بها نواب أخيه توران شاه، فأظهر لهم اللطف وحسَن إليهم صحبته ليطمئنوا إليه، ويظهروا ما يكنزونه من أموال، وقد آتت خطته ثمارها، إذ نزل حطان بن منقذ من قلعته التي تحصن بها إثر سماعه بقدوم طغتكين وبذله الأمان له، كما أظهر له حسن الصحبة حتى أذن له بالخروج إلى الشام، فأخرج حطان أمواله وأثقاله، فما كان من طغتكين إلا أن أمر بالقبض عليه ومصادرة أمواله التي بلغت مبلغا عظيمًا، حتى قيل إنها ضمت سبعين غلافًا زردية مملوءة ذهبًا[٢]، كما ذكر أن إجمالي قيمتها بلغت ألف

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٩٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٩٢؛ الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥٢٧.

ألف دينار[١]، وقبل أن نتسرع باتهام طغتكين باستصفاء تلك الأموال لنفسه نورد ما ذكره أبو شامة من أن طغتكين " . . .ذَكَر للسلطان من خبر ذهبه وماله الذاهب [حطان] ما يعيى بحصر تفاصيل جمله أنمل الحاسب. . ."[٢]، مما يعني أن طغتكين جعل أخاه السلطان على اطلاع دائم بتفاصيل الحساب لثروات النواب ليجعله على جلية من حجم تلك الثروات والموارد التي قد تتحصل من اليمن، والتي هو في أمّس الحاجة إليها لدعم وبناء قوة عسكرية قادرة على مقارعة الصليبيين، والشيء نفسه يقال عن محاولة النائب على عدن عز الدين عثمان الزنجيلي الذي هرب بما جمعه عن طريق البحر، فاعترضته مراكب سيف الإسلام، فلم يخلص له إلا ما صحبه في الطريق[٣].

ثانيًا- الدعم المالي من اليمن خلال الحكم الرسولي:

يعد قيام الدولة الرسولية نهاية لأشكال التبعية السياسية كافة التي فرضها الأيوبيون على اليمن، وقد تناولنا في الفصل الأول كيف أن العشرين عامًا التي تلت تنصيب عمر بن علي بن رسول نفسه سلطانًا على اليمن شهدت صراعًا مستمرًا وقويًا بينه وبين الأيوبيين حول السيطرة على الحجاز، حيث توالت حملات الطرفين على مكة المكرمة.

ولم تكن سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) نهاية المطاف في الصراع بين الطرفين رغم مقتل المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول فيها؛ وكذلك الملك المعظم توران شاه بن نجم الدين أيوب آخر سلاطين الأيوبيين في مصر،

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣/ ص٩٦.
(٢) أبو شامة: المصدر نفسه، ج٣/ ص٩٦.
(٣) الجَندي: المصدر السابق، ج٢/ ص٥٢٧- ٥٢٨.

فالمماليك الذين خلفوا الأيوبيين في حكم مصر لم تكن مطامعهم في اليمن لتخفى على المظفر يوسف بن عمر بن رسول، إلا أن افتقارهم إلى الشرعية التي كان يتمتع بها بنو أيوب فضلا عن انشغالهم بالتصدي للصليبيين والمغول في آن واحد، كل ذلك أدى إلى جعل الصراع بينهم وبين بني رسول حول السيادة على اليمن سياسيًا أكثر منه عسكريًا.

وقد بينا في الفصل السابق كيف استطاع السلطان المظفر يوسف الحصول على تشريف الخليفة المستعصم بالله بحكم اليمن، الأمر الذي زاد من قوته السياسية في مواجهة المماليك، كما أن محاولات الطرفين بسط نفوذهم على الحجاز ظلت تهدد العلاقة بين الجانبين لولا مرونة السلطان المظفر السياسية وحنكته، مما يعني استحالة حصول المماليك في مصر على أي شكل من أشكال الدعم المالي من اليمن، ما لم يكن ذلك قائمًا على الاتفاق بين الجانبين حول خطورة الأوضاع في العراق وبلاد الشام وضرورة العمل معًا لدرء ذلك الخطر الذي يتهدد الجميع.

وقد استعرضنا في الفصل السابق بعض ما ذكرته الكتب المرسلة من كلٍّ من الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون حول ضرورة قيام المظفر يوسف بدوره في نصرة إخوانه المجاهدين لا سيما أن "...هذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال ما يُربي عن الحصر والحد، ويزيد على الإحصاء والعد، لا ينفق منها شيء في الجهاد، ولا يعد منها مصروف إلا بما لا تحمد عاقبته في المعاد، قد صد عنها جند الله الذين ينفقونها سرًا وجهرًا، ويستنزلون بها أرواح أعداء الله على حكم سيوفهم قسرًا وقهرًا، وأبيحت لمن تأبّى الجهاد جانبًا، ورضي باللهو صاحبًا، واقتنى السلاح لغير يوم

البأس، واعتنى بارتباط الجياد بطرًا ورئاء الناس..."[1]، وجاءت عبارات العتاب والاتهام القوية هذه إثر تأخر المظفر يوسف في الإجابة عن كتاب كان قد أرسله السلطان قلاوون في وقت سابق، ويظهر أن الكتاب لم يذكره أحد من المؤرخين، ومن ثم لم يتسن لنا معرفة ما ورد فيه، إلا أن إشارة السلطان قلاوون تؤكد أن الكتاب يتمحور حول المساعدات التي يمكن أن يقدمها المظفر "...وكان كتابنا قد تقدم في أمر المجاهدين وما يحتاجونه من الإعانة بما يحمل إليهم من الأموال بالمملكة اليمنية ليصرف ذلك في حقه، ويصل إلى مستحقه، ويكون قد أعد منها للإنفاق في سبيل الله جانب بحيث لا يضاع، ووصل إلى مجاهدي الأمة نصيب من مال الله..."[2].

ويبدو أن تأخر السلطان المظفر في الرد كان نتيجة عدد من الأسباب، منها انشغاله بالقضاء على الفتن والحركات المناوئة لحكمه، وكذلك حرصه على عدم اعتبار المماليك ما سيرسله إليهم من الأموال نوعًا من الإتاوة يدفعها بنو رسول إلى المماليك، ومن هذا المنطلق استخدم المظفر أسلوب الهدايا التي تتضمن العديد من النوادر والتحف والذخائر وأصناف الأسلحة، وهي أمور سنتناولها فيما يأتي.

ويهمنا في هذا المقام معرفة ما إذا كان هناك دعم مالي ثابت من اليمن يقدمه السلطان المظفر يوسف؟

على الرغم من شحة المعلومات التي تقدمها المصادر التاريخية حول طبيعة موقف اليمن المالي من الجهاد ضد الصليبيين؛ فإنه توافر بين أيدينا

(١) القلقشندى: صبح الأعشى،ج٧/ ص ٣٧٥-٣٧٦.
(٢) القلفشندي: المصدر نفسه، ج٧/ ص ٣٧٦.

عدد من النصوص - ولو أن بعضها يتناول أحداث مطلع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي - قد تساعدنا في معرفة ما إذا كان هناك دعم مالي يصل من اليمن، وكيف كان يصل هل في مناسبات معينة أو بشكل منتظم؟ وهل كانت تعد هدية أو شكلاً من أشكال الإتاوة يدفعها سلاطين بني رسول إلى سلاطين المماليك في مصر والشام؟ فقد ذكر الخزرجي في حوادث سنة (٧٠٤هـ/ ١٣٠٣م) أن السلطان المؤيد داود بن المظفر أرسل الأمير أسد الدين محمد بن نور سفيرًا إلى الديار المصرية[١]، وقدم لنا الخزرجي وصفًا للهدية التي حملتها معها تلك السفارة إلى السلطان الناصر محمد قلاوون بأنها سارت " . . .بأنواع التحف السنية من الفضيات على اختلاف أنواعها. . . وسواري العود والصندل، والقطع الكبار من العنبر ونوافح[٢] المسك، وما عظم شأنه من الفخار الصيني ومن الخدام الحبش، ومن القنا الهندي والمراقد الصينية ومن المراتب المذهبة ومن الثياب المذهبة الصينية ما عظم شأنها، ومن الأواني والأطباق والصناديق المملوءة بالمسك، وما يتعلق بالحوائج خاناه - أي البهارات - كالفلفل والقرنفل والزنجبيل، ومن الوحوش كالفيل وحمار الوحش والزرافة كلها مكسوة بالحرير والأطلس الملمع بالذهب، ومن الخيل المسومة العربية الأصائل اللائقة بحال المرسل إليه، نقل ذلك مركبان عظيمان، ومثل هذه من الهدية لا تكاد تتأخر بين عامين أو ثلاثة؛ طلبًا للمودة والمحبة واستمرارا على

(١) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٣٦٠.
(٢) نوافح: من نفح الشيء نفحًا أي ارتفع وثار، والمقصود به ما ثار وفاح من أنواع المسك؛ انظر: مصطفى (إبراهيم) وآخرون: المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية - إستانبول، ط٢- ١٩٧٢م، ص٩٣٧.

ما يعهد من الصحبة...."[1]، ففيما ذكره الخزرجي بيان للغرض الحقيقي من تلك الهدية، وهو غرض سياسي، القصد منه استمرار أواصر المودة والصداقة بين الدولتين، وأن هذه الهدية قد جرت العادة بإرسالها بشكلٍ منتظم، وقد عدها سلاطين بني رسول هدية مقدمة منهم إلى سلاطين المماليك.

وتخبرنا الرواية الآتية أن تلك الهدايا لم تبدأ في عهد السلطان المؤيد، بل هي مواصلة لسياسة والده المظفر، الذي بدأ صفحة جديدة من العلاقات مع القاهرة، ففي عقد الجمان يتكلم العيني عن هذه الهدية بقوله: "...كانت ملوك اليمن ترسلها إلى صاحب مصر، خارجًا عما كان مقررًا عليهم في كل سنة في الأيام الظاهرية - حكم الظاهر بيبرس - فان الملك المظفر ولي اليمن نحو أربعين سنة، ولم يقطع ما كان عليه من المقرر، وهو ستة آلاف دينار في كل سنة، كان يشتري بها أصناف المتجر، ويسيرها إلى قلعة الإسماعيلية[2]، فكانت ترصد هناك، وهذه كانت عادتهم من تقادم السنين مع هدية يختص بها السلطان، فلما ولي ولده الأشرف أيامًا قليلة وخرج عليه هزبر الدين ملك اليمن قطع الجهتين..."[3].

وهكذا حصلنا على ما يثبت أن الدعم المالي من اليمن كان دعمًا على

---

(١) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٣٦١.

(٢) قلعة الإسماعيلية: انتشرت قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام، وقد اشتهرت بمناعتها وحصانتها ضد أي اختراق، ولم يحدد النص أي قلعة من قلاعهم هي المعنية.

(٣) العيني (بدر الدين محمود): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٩٩٠م، ج٤/ ص٣٥٣-٣٥٤.

شكل هدايا منتظمة للسلطان المملوكي، فضلا عن مبلغ سنوي كان السلطان المظفر - الذي حكم سبعةً وأربعين عامًا وليس أربعين - يشتري لهم به من أصناف البضائع، ويرسله إلى قلعتهم المذكورة، وأما ما ذكره العيني من أن ذلك كان مقررًا على بني رسول فإنه يؤكد مخاوف المظفر من أن تعد هذه المساعدات إتاوة أو ضريبة لازمة على بني رسول مع تقادم الزمن، وقد أدى ذلك الفهم لطبيعة تلك المساعدات والدعم إلى اشتعال فتيل أزمة سياسية بين الدولتين كادت تؤدي إلى نشوب حرب بينهما، وذلك مع مطلع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، إذ كثرت الأراجيف التي حملها بعض تجار الكارم إلى القاهرة حول عزم السلطان المؤيد داود بن المظفر قطع الهدية التي جرت العادة بإرسالها إلى الديار المصرية واستهانته بسلطان المماليك(١).

وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين الجانبين حتى إنهم تعاملوا مع الهدية التي ذكرها الخزرجي بشكل مختلف وذلك عندما "...وصل رسول الملك المؤيد صاحب اليمن ومعه الهدية الثمينة من البهار والقنا والشاشات والتحف - بعض ما ذكره الخزرجي - فقوّمت هديته، فكانت أقل قيمة من الهدايا التي كان يرسل بها أبوه، فصدرت إليه الكتب الشريفة بالإنكار والتهديد والإغلاظ والوعيد، وأرسلت على يد بدر الدين محمد الطوري أحد مقدمي الحلقة، فلم يصادف منه لما اجتمع به قبولاً، ولا أعاد معه رسولاً، فرجع بعد مدة..."(٢)، وقد ذكر الخزرجي وصول ذلك الرسول صحبة رسول المؤيد العائد من القاهرة أسد الدين محمد بن نور، وأنه أقام

(١) العيني: عقد الجمان، ج٤/ ص٣٥٣.
(٢) العيني: المصدر نفسه، ج٤/ ص٣٧٧.

في تعز أيامًا وقابل السلطان المؤيد الذي أكرمه، ثم انتقل إلى زبيد حيث تهيأ للرحيل إلى مصر[(١)].

وتعقدت الأوضاع مما زاد من توترالعلاقات بين الدولتين، حتى أعلن المماليك الحرب على الدولة الرسولية، وصدرت الأوامر إلى كل مقدم ألف بأن يعمر مركبًا كبيرًا وقارب يكون خلفه لحمل الزاد والعدة والمتاع[(٢)]، وكان تعداد المراكب التي عمرت نيفًا وخمسين مركبًا[(٣)].

ولما بلغت أنباء تلك الحملة مسامع السلطان المؤيد قام على الفور باتخاذ إجراء في غاية الحصافة والفطنة لإنهاء الأزمة من دون الدخول في حرب ضد المماليك، فبادر إلى التضييق على تجار الكارم، ومنعهم من استخدام الموانئ اليمنية، الأمر الذي أضر بتجارتهم أيما إضرار، فاستخدموا نفوذهم في القاهرة ليوقفوا تلك الحملة "...فسأل أعيان الكارم الإمهال إلى أن يتوجه الرسل إلى صاحب اليمن ويعود الجواب، فأمهلوا..."[(٤)]، ووصل الرسل إلى بلاط السلطان المؤيد "...وكان مضمون الرسالة تقرير الحال وأن السلطان - الناصر محمد بن قلاوون - قد رجع عما عزم عليه، وتم في خلال ذلك الرغبة إلى الصلح والموادعة..."[(٥)].

وقد اقتدى السلطان المؤيد في تعامله مع هذه القضية بوالده السلطان المظفر الذي رسم سياسة اليمن تجاه دول الجوار، ولا سيما علاقة تعز

(١) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٣٦٧.
(٢) العيني: المصدر السابق، ج٤/ ص٤٦٣.
(٣) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٣٧٣.
(٤) العيني: عقد الجمان، ج٤/ ص٤٦٣.
(٥) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٣٧٤.

بالقاهرة على أساس التعاون والصداقة بين الدولتين من دون التفريط في السيادة الرسولية على اليمن وما يتبعها، فبعد فتح عكا وتطهير بلاد الشام من الوجود الصليبي توقف السلطان المظفر عن إرسال ما اعتاد إرساله من الهدايا للسلطان المملوكي، مما أثار غضب السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، فأرسل إليه بكتاب مع أحد تجار الكارم يهدده فيه ويتوعده وختم الكتاب بالعبارة التالية (إلى الخارجي باليمن)، فلما وصل الرسول وسلم السلطان المظفر الكتاب وقرأ عنوانه أعاده إلى الرسول من دون أن يفتحه قائلاً "هذا الكتاب ما هو لي وهذا عنوانه إلى الخارجي باليمن، فإن كنت تعرف الخارجي باليمن فأوصله إليه وإلا رده على صاحبه"(١)، وعندما بلّغه الرسول رسالة شفهية من الأشرف بأنه سيرسل جيشه إلى اليمن إن لم يستجب المظفر لما جاء في كتابه؛ رد عليه المظفر بقوله "هذا كلام من غلب عليه الجهل والشغاب"(٢).

ونستخلص مما سبق أن الدعم المالي من اليمن كان يصل كل عام على شكل سلع وبضائع بما يساوي ستة آلاف دينار(٣)، وترصد بقلعة الإسماعيلية في الشام كما ذكر العيني، وأما الهدية فقد كانت تصل ما بين عامين أو ثلاثة كما ذكر الخزرجي، وهي مخصصة للسلطان المملوكي، ولكنها بضخامتها وما تحويه من النفائس كانت تحتل مكانًا في خزينة السلطان لدرجة أنها كانت تُقَوّم - تثّمن - وتكاد تنشب الحرب بين الدولتين إذا قلّت

---

(١) العيني: المصدر السابق، ج٣/ ص٢١٠.
(٢) العيني: المصدر نفسه، ج٣/ ص٢١١.
(٣) نظرًا لأن هذه الأموال كانت ترسل على شكل سلع وبضائع فمن المرجح إذًا أن يكون المقصود دنانير مملوكية.

قيمتها أو انقطعت، الأمر الذي يدل على ضخامة الدعم المالي الواصل من اليمن في عهد الدولة الرسولية مهما تنوعت صفته وأشكاله، فقد كان من بين ما حمله رسل المظفر إلى المنصور قلاوون سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م) كمية هائلة من البهار قدرت بحمل سبعين جملاً، ومن القماش ما حمل على مائة قفص ومن تحف اليمن مائة طبق"[١]، وقد أظهر السلطان المظفر بموقفه هذا إحساسه بالمسؤولية تجاه ما تعانيه الأمة في ظل الأوضاع السياسية في بلاد الإسلام بعد سقوط الدولة الأيوبية ومن بعدها الخلافة العباسية في بغداد.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) المقريزي: السلوك، ج١/ القسم الثالث/ ص٧٢٩.

المبحث الثاني

الدعم العسكري

نظرًا لما شهدته الجبهة الإسلامية من تطورات، وتزايد حدة المواجهة بين المسلمين والصليبيين، وتعدد مصادر الإسناد العسكري التي يعتمد عليها الجانبان في رفد آلتهم العسكرية بمزيد من الجند، سواء أكانوا من الفرسان أم المشاة المتمرسين على فنون القتال في ذلك العصر الذي وصلت فنون الفروسية فيه إلى ذروتها؛ صار مصير أي معركة تحتدم بين الجانبين يعتمد على نوعية الجند في أحد المعسكرين ومدى احترافهم في مجال خوض المعارك وحصار المدن.

وبات هذا الأمر جليًا من خلال المقارنة بين كفاية الجيش الأيوبي والجيش المملوكي، إذ يعلق رنسيمان على ذلك بقوله: "...أما بلاد الإسلام فان ما جرى فيه من باعث متصل للجهاد أدى إلى أن يحل مكان الأيوبيين المعروفين بالرحمة والتهذيب، المماليك الذين يفوقونهم في الكفاية ويقصرون عنهم في الشفقة..."(١).

ومن جهة أخرى فإن جيوش المسلمين التي تصدت للصليبيين وحلفائهم من المغول والأرمن وغيرهم طوال قرنين من الزمن؛ كانت في حاجة مستمرة إلى المزيد من السلاح باختلاف أنواعه من السيوف والدروع والرماح والخناجر والقسي وما يتبعها من سهام، وكذلك الدواب المستخدمة في الحروب لا سيما الخيل التي ترفد سلاح الفرسان عماد جيوش ذلك

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/ قسم١/ ص١٤.

العصر، والتي عليها يعتمد مصير المعركة.

وقد تناولنا في الفصل الأول من هذا البحث الإمكانات الصناعية والثروة الحيوانية التي تتمتع بها اليمن، والشهرة التي اكتسبتها السيوف والخناجر اليمنية، وكذلك أصالة الخيول اليمنية حتى صارت من أهم الصادرات اليمنية إلى الهند، ولذلك فإنه من الطبيعي أن يكون لليمن مكانٌ بارزٌ في مخططات الدعم والإسناد العسكري للقوات الإسلامية المجاهدة ضد الصليبيين.

أولاً- العتاد والخيل:

بعدما تمكن صلاح الدين من ضم اليمن إلى سلطانه واكتملت تحت لوائه الوحدة الإسلامية شن على الصليبيين حربًا لا هوادة فيها، أظهرت فيها القوات الإسلامية درجة عالية من الإعداد والانضباط اللذين أديا إلى تمكين المسلمين من عدوهم والنصرعليهم، وقد أورد رستون في كتابه (مقاتلون في سبيل الله) معلومة مفادها أن الخيول اليمنية كان لها حضور في معركة حطين، وأدت إلى تفوق سلاح الفرسان لدى المسلمين على عدوهم؛ نظرًا لأنها "... صغيرة القامة، دقيقة القوائم والبطون، سريعة الحركة والقفز..."(١)، وذكر في موضع آخر أنه خلال الحملة الصليبية الثالثة غيَر العدو تكتيكه الهجومي ودعم قوة الفرسان عنده وذلك حين "...ألحق بفرسان الهيكل في طليعة الجيش فيلق من التركوبلي، وهم فرسان محملون بأسلحة خفيفة سريعوا الحركة مدربون تدريبًا خاصًا لصد هجوم الغزاة

(١) رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٨٤.

المسلمين على أحصنتهم اليمنية الرشيقة..."[١].

وهذا الأمر ليس بمستبعد نظرًا لأن اليمن صارت جزءًا من الدولة الأيوبية، ومن ثم إمكان تزويد الجيش الأيوبي بعدد من الخيول اليمنية الأصيلة والمشهورة بخفتها ورشاقتها، لا سيما أن استخدام اليمنيين لها في حروبهم التي لا تنتهي جعلها معدة ومدربة للاستخدام في المعارك، وعلى الرغم من أننا لا نملك نصًا من المصادر المتوافرة بين أيدينا يخبرنا عن قيام القائمين على الإدارة الأيوبية في اليمن بإرسال الخيول إلى مصر بشكل منتظم؛ فإننا نملك إشارات تدل على قيامهم بجمع كثير من الخيول اليمنية، ففي الاتفاق الذي عقد بين السلطان علي بن حاتم والسلطان سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ذكر فيه أن يلتزم الطرف الأول بدفع ثمانين ألف دينار حاتمية ومائة حصان في السنة، وبعد انتهاء مدة الصلح جدد الاتفاق على أن يسقط سيف الإسلام عنهم عشرين ألفًا وعشرين حصانًا في السنة[٢].

ونظرًا للطلب الهائل على الخيول اليمنية من الهند وصعوبة منع تصديرها لما في ذلك من الضرر على ميزانية ولاية اليمن، عمد القائمون على الإدارة الأيوبية في اليمن إلى فرض ضريبة خروج الخيل من عدن إلى الهند، وهي سبعون دينارًا على الحصان، في حين يؤخذ على الحصان الداخل - المستورد - خمسون دينارًا[٣]، وعلى الرغم مما ذكر بأنها

(١) رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣١٢.
(٢) ابن حاتم: السمط، ص٢٧، ٣٠؛ الخزرجي: العسجد، ص١٦١، ١٦٣؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٧٦، ٢٧٨.
(٣) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص١٤١؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص٦٠.

استجدت في أيام الناصر أيوب بن طغتكين[١] فإن ذلك لا يمنع من أن يكون ذلك الإجراء قد طبق بشكل أو بآخر من قبل، لا سيما أن تصدير الخيل إلى الهند لم يطرأ في زمن الناصر أيوب، بل كانت قبله بزمن بعيد، وعمومًا فإنه من المعروف في مجال التجارة وإدارة الأسواق أن مثل هذا الإجراء هو للحفاظ على سلعة السوق المحلية والخفض من تصديرها.

وأما بالنسبة إلى السلاح بأنواعه فلم يتوافر بين أيدينا مصدر يتحدث عن إرسال كميات من السلاح إلى مصر أو الشام خلال الحكم الأيوبي لليمن، وربما يعود ذلك إلى حاجة الأيوبيين إلى المال من اليمن أكثر من السلاح، ومع ذلك فإن احتمال وصول مثل تلك الأسلحة إلى مصر ومن ثم إلى جبهة القتال في بلاد الشام يظل ممكنًا كون اليمن ولاية أيوبية.

وفي العصر الرسولي كانت الهدايا التي يرسلها السلطان المظفر وأبناؤه من بعده تحمل كثيرًا من التحف والذخائر فضلا عن كميات من الأسلحة ولا سيما السيوف والقنا، وأعداد متفاوتة من عتاق الخيل، فعلى سبيل المثال لا الحصر تضمنت الهدية التي أرسلها المظفر يوسف إلى الظاهر بيبرس سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) فيلاً وحمار وحش أبيض وأسود وخيولا[٢]، وقد ذكر المقريزي أن تلك الهدية حوت "...عشرين فرسًا عليها لأمة الحرب..."[٣]، وبما أن القيمة الحقيقية للدعم هي أن يكون متكاملاً فقد طبق المظفر ذلك من خلال تجهيزه ذلك العدد من الخيل مع ما يلزمها من

(١) ابن المجاور: المصدر السابق، ص١٤١.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص١٢٧.
(٣) المقريزي: السلوك، ج١/ القسم الثاني/ ص٥٦٠.

معدات وسلاح الفارس، وفي سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م) وصلت إلى البلاط المملوكي هدية صاحب اليمن، وتضم كثيرًا من الخيل والقنا وكثيرًا من التحف ولطائف اليمن[١].

وقد يبدو للوهلة الأولى ضآلة ما قدمته اليمن، إلا أنّه مع تواصل ذلك الدعم طوال مدة الجهاد الذي قاده المماليك ضد الصليبيين صار القليل كثيرًا، وأصبح ما قدمته اليمن من خيل وسلاح وعتاد شيئًا بارزًا وملموسًا ليس بين صفوف المجاهدين في مصر والشام فقط، بل حتى عند الصليبيين أنفسهم، وذلك من خلال ما ذكره الرحالة البندقي ماركوبولو[٢]؛ عندما كتب عن سلطان عدن - السلطان الرسولي - " . . .وبلغني أنه عندما قاد سلطان بابل [القاهرة] جيشه أول مرة على مدينة عكا، واستولى عليها، زودته مدينة عدن هذه بثلاثين ألف جمل، بدافع من حقدها على المسيحيين. . ."[٣]، وعلى الرغم مما في هذه الأرقام من المبالغة الواضحة، إذ لا يعقل أن تتمكن اليمن رغم ثروتها الحيوانية الهائلة من توفير هذا العدد الضخم من الخيل والإبل؛ فإنه مما لا شك فيه أن الدعم الواصل من اليمن من الخيل والإبل والسلاح والعتاد كان مستمرًا

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج١/ القسم الثالث/ ص٧٢٩.
(٢) ماركوبولو (٦٥٢هـ/ ١٢٤٥م - ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م): رحالة بندقي، قام بعدد من الرحلات مع والده وعمه، فزار آسيا الوسطى والصين، واستقر مدة في بلاط قوبلاي خان المغول، وقام بجولة في جنوب شرق آسيا وجنوب الهند وسواحل المحيط الهندي، عاد إلى البندقية سنة (٦٩٣هـ/ ١٢٩٥م)، واشترك في معركة ضد جنوة أسر فيها؛ انظر: الموسوعة العربية الميسرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، دار الجيل - القاهرة، ط٢- ٢٠٠١م، مج٢/ ص٦١٠.
(٣) ماركوبولو: الرحلات، تر: عبدالعزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ١٩٩٦م، ص٩٢.

رغم تواضعه، حتى صار الدعم اليمني ذا وزن ملحوظ في ترجيح كفة المسلمين في أثناء استرداد عكا وذلك بشهادة الصليبيين أنفسهم.

ثانيًا - المقاتلون:

استمرت الحروب الصليبية زهاء قرنين من الزمن شهدت فيها أرض الشام ومصر مئات المعارك، استنزفت خلالها الطاقات البشرية من كلا الجانبين، ولولا الدعم غير المحدود من أوروبا للصليبيين في الشرق لما استطاعوا الصمود في وجه القوات الإسلامية؛ التي أفنى قادة الجبهة الإسلامية من أمثال آل زنكي وآل أيوب أعمارهم في إعدادها وبنائها بناءً عسكريًا متينًا يؤهلها للمواجهة الحاسمة مع الصليبيين، وذلك عندما تصبح الظروف السياسية مواتية لذلك، وإن المتتبع لتاريخ الجهاد ضد الصليبين سيدرك ضخامة القوات التي حشدها المسلمون في مواجهة جحافل الصليبيين التي لا حصر لها، فكان السلطان صلاح الدين يعسكر بجيشه في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة والإمدادات العسكرية تأتيه من مختلف الأقاليم التابعة له أو الموالية، حتى تمكن من التصدي لتلك الحملة الضخمة واستنزاف قوتهم، مما اضطرهم إلى طلب الصلح مع المسلمين سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)[١].

وخلال ذلك توالت الكتب من السلطان صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين، حاملة أخبار الحرب الدائرة بين المسلمين والصليبين

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القدسي، ص٤٧٢، ٥٢٦، ٦٠٣-٦٠٥؛ ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٣٨٥-٣٩٧؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، تقديم وتحقيق: حسين حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، د.ط - ٢٠٠٢م، ص١٥٧، ٢٣٨.

وتطوراتها، حتى كادت تصبح تقريرًا دوريًا مفصلاً[(١)]، وقد أبدى السلطان لأخيه رغبته في الانضمام إليه بقواته من اليمن ليسهم في تطهير الساحل من الإفرنج، وقدم لنا القلقشندي ذلك الكتاب بقوله "...وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضي الفاضل عن السلطان - صلاح الدين يوسف بن أيوب - إلى أخيه سيف الإسلام سلطان اليمن، يستقدمه إليه معاونًا له على قتال الإفرنج خذلهم الله..."[(٢)]، وبعد أن استعرض الكتاب ما حققه المسلمون من نصر على الصليبيين وما استردوه من مدن ومعاقل، أخبر السلطان أخاه بأنه يتوقع هجومًا مضادًا من الصليبيين، وأنهم لن يستسلموا لخسارتهم في حطين وما بعدها "...والآن فالمجلس - أسماه الله - [يقصد مجلس الحكم في اليمن] يعلم أن الإفرنج لا يسألون عما فتحنا، ولا يصبرون عما جرحنا، فإنهم - خذلهم الله - أممٌ لا تحصى، وجيوش لا تستقصى؛ ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا، ويطمع في كل مدينة كسبا... فالبدار إلى النجدة البدار... وإن الطلب على الشام ومصر تفرق؛ ولا غنى أن يكون المجلس السيفي - أسماه الله - بحرًا في بلاد الساحل يزخر سلاحًا، ويجرد سيفًا يكون على ما فتحناه قفلاً ولما لم يفتح بعد مفتاحًا..."[(٣)]، لقد كان السلطان صلاح الدين في مرحلة ما بعد حطين في أمس الحاجة إلى كل من يثق به وبكفايته من أهل بيته ورجاله ليشن حرب استرداد على طول الساحل الشامي، ويؤمنه تحت السيادة

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص١٩٠- ٢٠٢، ٤٢١ - ٤٢٢، ٤٢٩- ٤٣٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٢٢- ٢٧.
(٢) القلقشندي: المصدر نفسه، ج٧/ ص٢٢- ٢٣.
(٣) القلقشندي: المصدر نفسه، ج٧/ ص٢٤- ٢٧.

الإسلامية ليقطع الطريق على أية قوات تقدم إلى الشرق من أوروبا، لا سيما وقد علم بأن مصر تدخل ضمن مخططاتهم للقضاء على القوة الحربية للمسلمين، فصار من الضروري تضافر الجهود كافة للحفاظ على ما حققه المسلمون بعد حطين من انتصارات وفتوح.

وقد ذكر بامخرمة وصول ذلك الكتاب إلى سيف الإسلام طغتكين[(١)]، ولكننا لم نسمع بأي تحرك من قبله لنصرة أخيه السلطان، وقد يعود ذلك إلى انشغاله بتوطيد الحكم الأيوبي في اليمن، فقد تسبب انشغال النواب بالصراع فيما بينهم بإعطاء الفرصة لكثير من القوى اليمنية لإعادة تنظيم نفسها ودعم دفاعاتهم وتقوية تحالفاتها مع القوى الأخرى، فاضطر طغتكين إلى العمل على انتزاع القلاع والحصون المهمة من يدها لئلا تشكل تهديدًا للحكم الأيوبي في اليمن، فبعد فراغه من مصادرة أموال النواب ومحاسبتهم انشغل بفتح عدد من الحصون طوال عامين[(٢)]، حيث قام بحصار حصن حَب[(٣)] طوال سنة (٥٨١هـ/ ١١٨٥م)، وترك جزءًا من جيشه يواصل الحصار بينما انطلق هو إلى مكة ليؤدي فريضة الحج ويؤمنها من الأطماع الزيدية والفوضى المنتشرة فيها، وقد ألقى الشاعر ابن عنين[(٤)] قصيدة تخاطب طغتكين وتعبر

---

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص٦.
(٢) الخزرجي: العسجد، ص١٥٩- ١٦٠؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٧٦- ٢٧٧.
(٣) حب: بفتح الحاء وتشديد الباء، حصن شهير في جبل بَعْدان، يعد من أمنع حصون اليمن، وهو مناوح لجبل التَّعْكَر من الشرق، وقد شهد هذا الحصن كثيرًا من الأحداث التاريخية؛ انظر: المقحفي، المعجم، ج١/ ص٤٠٠.
(٤) ابن عنين: أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاري، شاعر مشهور، كان غزير المادة من الأدب، مطلعًا على معظم أشعارالعرب، وكان مولعًا بالهجاء وثلب أعراض الناس، نفاه صلاح الدين من دمشق بعد قصيدته (مقراض =

عن حرج موقفه، قال فيها[١]:

أعيت صفاتُ يديك المِصْقعَ اللسِنا
وجُزْت في الجود حدَّ الحُسْن والحَسَنا
وما تريد بجسم لا حياة له
من خلّص الزُّبْد ما أبقى لك اللّبنا
ولا تقل: ساحل الإفرنج أفتحه
فما يساوي - إذا قايسته - عدنا
وإن أردت جهادا فادن سيفك من
قوم أضاعوا فريض الله والسننا
طهِّرْ بسيفك بيت الله من دنس
وما أحاط به من خشنة وخنا
ولا تقل إنهم أولاد فاطمة
لو أدركوا آل حرب حاربوا الحَسَنا

وقد وافقت قصيدة ابن عنين الرأي الذي مال إليه طغتكين، وهو أن الأولوية لتوطيد الحكم الأيوبي في اليمن، وأن ذلك مقدم - في نظره - على السير إلى الشام للمشاركة في الجهاد بنفسه مع أخيه، فالأبيات الأولى من القصيدة تصرح بأنه كانت لديه النية للمسير إلى الشام.

= الأعراض) التي جمع فيها خلقًا من رؤساء دمشق، فطاف بالبلاد من الشام والعراق والجزيرة وخراسان والهند واليمن، توفي سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٥/ ص١٦- ١٩.

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص٧.

ولما عاد طغتكين من مكة مع بداية سنة (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) وجد حصن حب مازال صامدًا في وجه قواته، فضرب عليه حصارًا محكمًا حتى افتتحه، وكذلك حصن قيضان[١] الذي استغرق حصاره تسعة أشهر، وذروان[٢] خمسة أشهر، والدملؤة التي استغرق حصارها مدة طويلة[٣]، بل إن حصار معقل آل حاتم الهمدانيين المنيع (ذمرمر) استغرق أربع سنوات حتى إن طغتكين جعل الحصار مناوبة بين كتائب جيشه[٤]. وقد استخدم طغتكين في تلك العمليات العسكرية والمعارك الشرسة كل ما توافر تحت يده من جند ومال وعتاد، حتى الأسلحة الثقيلة كالمنجنيقات[٥]، مما يدل على انشغاله بتوطيد الحكم الأيوبي في اليمن عن إرسال ما يحتاجه السلطان من الجند.

وفي عصر الدولة الرسولية وبالتحديد خلال حكم السلطان المظفر عاش اليمنيون في ظل دولة ثابتة الأركان والدعائم، رغم الصراع بين بني رسول وأئمة الزيدية في اليمن الأعلى. وقد أتاح ذلك الاستقرار النسبي لليمنيين أن يسهموا بفاعلية في نصرة إخوانهم المجاهدين في مصر وبلاد الشام ضد الغزاة الصليبيين، وذلك من خلال إحساسهم عامة وسلطانهم المظفر خاصة

---

(١) حصن قيضان: بفتح فسكون ففتح، حصن خارب اليوم - في جبل بني الحارث من بلاد يَرِيم، وهو حصن عال منيف، وله منعة وسيطرة على الطرق المؤدية إلى حقل قتاب من بعدان؛ انظر: المقحفي، المصدر السابق، ج٢/ ص١٣١١.

(٢) ذروان: جبل صغير فوق قرية منكث من مركز بني منبه وأعمال يريم؛ انظر: المقحفي، المصدر نفسه، ج١/ ٦٤٧.

(٣) الخزرجي: العسجد، ص١٦١- ١٦٣؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٧٦- ٢٧٩.

(٤) ابن حاتم: السمط، ص٣٧- ٣٩؛ الخزرجي: المصدر نفسه، ص١٦٧؛ ابن الديبع: المصدر نفسه، ص٢٨٠.

(٥) الخزرجي: المصدر نفسه، ص١٥٩- ١٦٧؛ ابن الديبع: المصدر نفسه، ص٢٧٦- ٢٨٠.

بالمسؤولية تجاه إخوانهم الذين يذودون عن حمى الإسلام ضد أعدائه من الصليبيين ومن حالفهم، لا سيما وقد أقام السلطان المنصور قلاوون الحجة على المظفر حين طلب منه في كتاب أرسله إليه أن يمكن من رام الجهاد من أهل اليمن إلى ذلك(١)، مما يلقي عليه مسؤولية كبيرة تتمثل في إعداد هؤلاء المقاتلين وتدريبهم وضمان مستلزماتهم واحتياجاتهم كافة من مصروفات وعتاد وسلاح؛ ليكونوا عونًا لإخوانهم لا عالة عليهم في حرب يتقرر مصيرها على نوعية الجند وكفايتهم أكثر من عددهم، فقد ذكر كل من الجَنَدي والخزرجي وابن الديبع أنه كان للسلطان المظفر خمسمائة فارس في مصر يجاهدون الإفرنج، ويحمل إليهم جوامكهم - مرتباتهم - من اليمن، وذلك ضمن الهدايا التي كان يرسلها إلى سلطان المماليك(٢).

ويدل ذلك على أن هؤلاء الفرسان هم من جند السلطان المظفر وذلك من خلال التزامه بإرسال مرتباتهم ونفقاتهم من اليمن بانتظام خارجًا عن الهدية والأموال التي يرسلها إلى سلطان المماليك، وإنه لمن المعروف أن خمسمائة فارس كانت قوة لها وزنها في الميزان العسكري لجيوش ذلك العصر، إذ إن إعداد الفارس وتدريبه وتوفير احتياجاته كان يستهلك كثيرًا من الجهد والوقت والمال، نظرًا لأن الفرسان كانوا الذراع الطولى والقوة الضاربة لجيوش ذلك العصر، وقد يقول قائل إن من المحتمل أن يكون المقصود مما ذكره المؤرخون اليمنيون هو أن السلطان المظفر إنما تبنى إعداد خمسمائة فارس من فرسان المماليك في مصر وضمان ما يحتاجونه

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧/ ص٣٧٧، ٣٧٤.
(٢) الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥٥٢؛ الخزرجي: العقود، ج١/ ص٢٧٩؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٣٦.

من نفقات وسلاح كما فعل كل من ملك انجلترا وإمبراطور بيزنطة، بل إن ذلك العدد يوازي تقريبًا ما كانت تقدمه الإقطاعيات التابعة لمملكة بيت المقدس من الفرسان[١].

وقد يبدو هذا الرأي منطقيًا إلى حد ما لولا ما ورد في كتاب الخليفة المستكفي بالله إلى السلطان المؤيد خلال الأزمة التي حدثت بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون والسلطان المؤيد، فقد وجه الخليفة المستكفي اللوم إلى المؤيد لأنه قطع ما جرت عادة والده إرساله إلى مصر فقال له: "...ولك أسوة بوالدك فلان، هلا اقتفيت ما سنه من آثاره، ونقلت ما دونته أيدي الزمن من أخباره..."[٢]، ويواصل الخليفة تقريعه للمؤيد مقارنًا موقفه بموقف أبيه حتى ذكر له في نهاية المطاف أن يرسل "...رسولاً إلى مواقفنا الشريفة... بعد أن يُصْحِبَه من ذخائر الأموال ما كثر قيمة وخف حِملاً... واشرط على نفسك في كل سنة قطيعة ترفعها إلى بيت المال... ورتّب جيشًا مقيمًا تحت علم السلطان الأجل الملك الناصر للقاء العدو المخذول التتار..."[٣]، وقد تضمنت هذه المطالب ما اعتاد السلطان المظفر إرساله إلى مصر، وهي:

أ - الهدايا والتحف التي ذكرناها في أكثر من موضع.

ب - الدعم السنوي (القطيعة) الذي اعتاد المظفر إرساله، وهو ستة

---

(١) الطحاوي (حاتم عبدالرحمن): الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة، ط١- ١٩٩٩م، ص٢٣٣- ٢٣٩.
(٢) العيني: عقد الجمان، ج٤/ ص٤٦٦.
(٣) العيني: المصدر نفسه، ج٤/ ص٤٦٧- ٤٦٨.

آلاف دينار كان يشتري بها من أصناف المتجر، ويرسلها إلى الشام لتحفظ في قلعة الإسماعيلية.

ج- الإسهام في إرسال جيش يقيم بمصر، ويكون تحت إمرة السلطان المملوكي؛ ليشارك في جهاد التتار .

وبما أن الإسهامين السابقين هما مما اعتاد السلطان المظفر إرساله من قبل؛ فمن المنطقي إذًا ألا يشتطوا ويبالغوا في مطالبهم، وذلك بطلب إرسال جيش من اليمن يقيم في مصر تحت إمرة سلطان المماليك، ما لم يستندوا إلى اتفاق مسبق مع والده السلطان المظفر بهذا الشأن، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه الرسالة من الخليفة المستكفي كانت في سنة (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م)، مما يعني أن الخمسمائة فارس الذين أرسلهم المظفر كانت قد انتهت خدمتهم إما لوفاة سلطانهم المظفر، أو لانقطاع الدعم الواصل من اليمن بعد تحرير عكا سنة (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، ثم وفاة السلطان المظفر سنة (٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م).

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

المبحث الثالث

دور اليمن في حفظ أمن المنطقة

عندما شن الصليبيون هجومهم على بلاد الإسلام لم تكن فلسطين فقط هي هدف تلك الحرب التي شاركت فيها أوروبا كلها، وإنما كانت بلاد الإسلام - المنقسمة على نفسها آنذاك - كلها هدفًا لمخططات قادة الحركة الصليبية، حتى إن الحرب الصليبية كانت في نظر كثير من أمراء أوروبا مجرد مغامرة سياسية وحربية لغزو الشرق[١]، وقد أثبتت السياسة العسكرية التي اتبعها الصليبيون صحة هذه المخاوف، وذلك من خلال الآتي:

أ - احتلال الرها في أعالي الفرات وتأسيس إمارة صليبية فيها قبل الاستيلاء على بيت المقدس الهدف الأساسي المعلن للحرب الصليبية.

ب - تأمين المجال الحيوي لمملكة القدس اللاتينية وذلك باحتلال الساحل الشامي كله وكذلك الصحراء الجنوبية والجنوبية الشرقية لفلسطين (النقب، وادي عربة).

ج - السعي إلى ربط المملكة بالإمارات المسيحية الواقعة في الشمال (مملكة أرمينية) ليتيسر لهم فتح الطريق أمام الحجاج والأعداد المتزايدة من المهاجرين كخطوة أولى نحو تأسيس إمارات مسيحية (صليبية) أخرى في سوريا، وذلك لتشجيع الهجرة إلى الشرق، ومن ثم تأمين أكبر قدر من القوة البشرية الممكنة[٢].

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص١٣٧؛ هامرتون: تاريخ العالم، مج٥/ ص١٧٤.
(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ قسم١/ ص٢١ .

د - السيطرة على الإقليم الواقع بين البحر الميت وخليج العقبة، لقطع طريق الاتصال بين مصر وسائر بلاد الإسلام، فصارت سلسلة القلاع في الشوبك والكرك وأيلة وجزيرة فرعون تتحكم بالطرق التي تصل بين دمشق وبلاد العرب ومصر، وصارت القوافل السالكة لذلك الطريق تحت رحمتهم، في حين يتعذر على أي جيش إسلامي أن يصل إلى مصر من الشرق(١).

هـ - محاولاتهم المتكررة لاختراق خطوط المسلمين والتوغل في العمق الإسلامي، وذلك من خلال هجماتهم على دمشق وحلب، ومحاولاتهم غزو مصر واحتلالها، وأخيرًا تهديدهم للمقدسات الإسلامية، والرعب الذي أثاره أسطولهم في البحر الأحمر، موجهين بذلك رسالة واضحة وصريحة إلى جميع المسلمين، أنه لا يوجد بلد أو هدف مستثنى من هجمات الصليبيين أو مخططاتهم مهما كانت مكانته أو حياديته من تلك الحرب.

وفي المقابل كان لزامًا على المسلمين أن يواجهوا تلك المخططات والفعاليات العسكرية للصليبيين بنوع من الجدية، واتخاذ التدابير اللازمة لإحباط تلك المخططات والتصدي لها بقوة، وأن يقوم كل بلد من بلدان المسلمين بدوره في منع أي اختراق للصليبيين صفوف المسلمين، فيحدث بذلك نوع من التكامل والتعاون العسكري بين المسلمين كل من موقعه، وقد فطن السلطان صلاح الدين إلى ذلك حين عمل على تأمين قاعدته الأساسية - مصر- وذلك عبر سلسلة من الحملات العسكرية على برقة وطرابلس في الغرب، وبلاد النوبة جنوبًا.

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٢٥٧؛ رنسيمان: المرجع السابق، ج٢/ قسم١/ ص١٥٨- ١٦٠.

وأما بالنسبة إلى اليمن فقد كان لها موقع خاص في مخططات صلاح الدين الاستراتيجية في المنطقة ولإدارة الحرب ضد الصليبيين، وقد جاء اهتمام الأيوبيين عسكريًا باليمن بناءً على الأهمية السياسية والعسكرية والاقتصادية التي سبق ذكرها في الفصل الأول.

وبناءً على ما سبق صار من الواجب عسكريًا تدعيم السيطرة الأيوبية على البحر الأحمر والحجاز، وهو ما لا يمكن أن يتم من دون أن يكون لهم قاعدة عسكرية متقدمه على الحدود الجنوبية لديار الإسلام، فكان من الطبيعي أن يقع اختيارهم على اليمن نظرًا لمزايا موقعها الاستراتيجية والعسكرية، وللإمكانات التي يمكن أن توفرها تلك البلاد للقوه العسكرية المتمركزة فيها.

أولاً- اليمن ودورها في ضمان استقرار الحجاز وأمنه:

في سنة (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) تمكن علي بن محمد الصليحي من ضم مكة إلى سلطانه، وأقام على مكة أبا هاشم الحسيني، الذي أسس أسرة حكمت مكة قرابة (١٣٣) سنة (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م - ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)، عاشت خلالها مكة مرحلة من أسوأ مراحل تاريخها، إذ تخللتها الصراعات بين أمراء الهاشميين على السلطة وكذلك اعتداءات الأعراب(١)، ومرجع ذلك كله إلى انعدام الاستقرار السياسي في مكة بسبب تذبذب ولاء أمرائها بين العباسيين والسلاجقة من جهة، وبين الفاطميين والصليحيين من الجهة الأخرى، وأيضًا عدم توافر قوة عسكرية لدى السلطة الشرعية بمكة لتثبيت

(١) حرب (جميل حرب محمد): الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، تهامة للنشر - جدة، ط١- ١٩٨٥م، ص٢٥- ٣٣.

الأمن وحماية مكة من أي اعتداء خارجي[١]، كما أنّ احتياج هؤلاء الأمراء الدائم إلى المال بسبب شحة موارد مكة نفسها جعلهم يمدون أيديهم إلى أموال الحجاج والتجار تحت مسمى المكوس، الأمر الذي أدّى إلى اتخاذ تدابير تعسفية ضد الحجاج والتجار في أثناء جباية تلك المكوس، مما أشعل نار الفتنة في مكة، وأوقع الهاشميين في حرج شديد مع السلطات في القاهرة وبغداد[٢].

وقد أثارت الأوضاع السياسية التي يعيشها الحجاز قلق المسلمين في الأمصار كافة؛ لما يكنونه من احترام لتلك الديار الطاهرة، ولم يكن مرد ذلك القلق فقط ما ذكرناه من ممارسات أمراء الهاشميين، بل صار ذلك القلق هاجسًا يقض مضاجع الغيورين من قادة المسلمين، لا سيما مع وجود الخطر الصليبي شمال البحر الأحمر.

ونتيجة لذلك صار من الضروري توفير الاستقرار السياسي والاقتصادي للحجاز وتأمين الحماية لمقدسات المسلمين، فمن ذلك ما قام به السلطان صلاح الدين من إلغاء المكس المأخوذ من الحجاج، وعوض أمير مكة عنه بألفي دينار وألف إردب[٣] قمح فضلا عن إقطاعات منحه إياها في صعيد مصر واليمن[٤]، وقد أسهب ابن المجاور في الحديث عن تلك الإقطاعات

---

(١) حرب: المرجع السابق، ص٢٦-٢٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٦٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٥/ ص١٠٤، ١٣٧؛ سالم: البحر الأحمر، ص٤٣.
(٣) الإردب: مكيال يسع ٢٤ صاعًا؛ انظر: المعجم الوسيط، ص١٣.
(٤) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٤٦؛ المقريزي: الخطط، ج٢/ ص٢٣٣؛ سالم: البحر الأحمر، ص٥٦.

والأوقاف في اليمن بقوله: "...فلما أوقف صلاح الدين يوسف بن أيوب في أعمال مصر ما أوقف وقد تقدم ذكره في أعمال جدة أوقف توران شاه [يوسف] بن أيوب [هكذا] والأصح طغتكين بن أيوب... وادي الجريب والحرب [كذا] والمسلب(١)، وبقي يرفع دخلها إلى مكة إلى أن خبل(٢) وقفها الملك المسعود بن محمد بن أبي بكر سنة خمس عشرة وستمائة، وبقي يرفع دخل هذه القرى إلى الديوان، وأيضًا كان أوقف طغتكين بن أيوب على المدينة أم الدجاج(٣) مع جُمَل من الأراضي كلها... لما تغلب الأمير قاسم ابن المهنا بن جماز (٤) صاحب المدينة على مكة سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وبقي يرفع دخلها إلى الديوان، ورد الملك المسعود يوسف أم الدجاج على الأمير شيحة سنة خمس وعشرين وستمائة، وصار يصل دخلها إلى المدينة كما كانت..."(٥)، يتضح لنا مما سبق مدى أهمية الإقطاعات

(١) الجريب: قرية في جبل أسلم من بلاد حَجُور شمال غربي مدينة حجة، وهي مقر السلاطين من آل أبي الحفاظ الحجوري؛ انظر: المقحفي، المعجم، ج١/ ص٣١٠؛ والمسلب: قرية من ضواحي مدينة التحيتا غربي مدينة زَبيد كان بها المدرسة الصلاحية التي بنتها والدة السلطان المجاهد الرسولي؛ انظر: المقحفي، المصدر نفسه، ج٢/ ص١٥١٩.

(٢) خبل: بمعنى قطع، انظر: المعجم الوسيط، ص٢١٧.

(٣) أم الدجاج: لم نعثر لها على ذكر فيما توافر بين أيدينا من مصادر.

(٤) قاسم بن جماز بن مهنا: استقر في إمرة المدينة الشريفة بعد أبيه، فدام خمسًا وعشرين سنة إلى أن قتله بنو لام في سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م)، وكان الأمير شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا نازلاً قريبًا منه فلما بلغه مقتله توجه إلى المدينة مسرعًا حتى دخلها وملكها؛ انظر: السخاوي (الإمام شمس الدين محمد بن عبدالرحمن): التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١- ١٩٩٣م، ج٢/ ص٣٧٥ .

(٥) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٤٦.

والأوقاف التي رصدت في اليمن لصالح أمراء مكة والمدينة لغرض توفير مورد مالي ثابت لهم يمنعهم من مد أيديهم إلى ما عند الحجاج والتجار، وفي الوقت نفسه كانت أداة لضمان استمرار ولاء هؤلاء الأمراء للحكم الأيوبي، بدليل أن الأيوبيين في اليمن كانوا يقطعونها إذا حصل انقلاب في مكة أو المدينة على الحكومة الموالية لهم كما ذكر ابن المجاور.

وأما على الصعيد العسكري فقد كان من أولى الواجبات العسكرية المكلف بها حكام اليمن من الأيوبيين العمل على ضبط الأوضاع السياسية في الحجاز وضمان استقرار السلطة السياسية الموالية للحكم الأيوبي فيه، ففي سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) خرج الملك المعظم توران شاه على رأس حملته يريد اليمن، وبينما سار جزءٌ من الجيش بحرًا مع الأسطول المرافق له سار توران شاه برا ً وفي طريقه مر بمكة المكرمة فنزل بها معتمرًا، فلما وصلها هرب منه صاحبها الأمير عيسى بن فليتة[١] إلى أعلى جبل أبي قبيس، وتحصن بقلعة بناها في أعلاه، فما كان من توران شاه إلا أن أتم عمرته ودخل الكعبة معلنًا أنه ما جاء إلا لإصلاح العباد والبلاد وتعهدها[٢]، وقد آتت السياسة الحكيمة

---

(١) عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر الحسني المكي: المعروف بأبي هاشم، ولي إمرة مكة في آخر سنة (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) بعد ابن أخيه قاسم بن فليته، كانت مدة إمارته مليئة بالأحداث والصراعات حول السلطة بينه وبين إخوته وابن أخيه، توفي سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م)؛ انظر: القرشي (عز الدين عبدالعزيز بن عمر محمد): غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تح: فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، ط١- ١٩٨٦م، ج١/ ص٥٢٧- ٥٣٢.

(٢) سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاوغلي): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تح: مسفر بن سالم الغامدي، مركزإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة، د.ط - ١٩٨٧م، ص٣٠٠- ٣٠١؛ العسيري: الحياة السياسية، ص٧٣.

التي انتهجها توران شاه ثمارها، إذ شعر الأمير عيسى بن فليتة بالأمان فنزل إلى توران شاه، واعتذر منه، وسلمه مفاتيح الكعبة، وأعلن دخوله تحت طاعته، فشكر له توران شاه ذلك وثبته في حكم مكة(١).

يتضح مما سبق أن مسؤولية ضمان الاستقرار السياسي للحجاز وتبعيته للأيوبيين كانت ملقاة على عاتق القوات الأيوبية في اليمن، لا سيما أن توران شاه قد جعل طريق عودته من اليمن إلى الشام عبر مكة ليتأكد من استقرارالأوضاع فيها(٢).

وقد حذا سيف الإسلام طغتكين حذو أخيه الأكبر في متابعة الأوضاع في الحجاز وضمان استقرارها، فنزل ساحل ينبع، وسلك طريق البر، ولكنه سار إلى المدينة أولاً، فتسامع الناس في مكة بنبأ قدومه، وقد قدم لنا الرحالة ابن جبير - الذي كان موجودًا آنذاك في مكة - وصفًا رائعا ومفصلاً لدخول طغتكين وقواته إلى مكة معتمرين، فألقى بذلك الرهبة في قلوب الناس(٣)، كما أكرم طغتكين أمير مكة غاية الإكرام، وخلع عليه خلعة لم ير مثلها(٤).

وفي سنة (٥٨١هـ/ ١١٨٥م) ترك طغتكين جزءًا من جيشه يحاصر حصن حب ذي الأهمية العسكرية، وسار إلى مكة لأداء فريضة الحج وتفقد أوضاع مكة، التي كانت تعاني من تسلط العبيد على أهلها بسبب انشغال مكثر وداود ابني الشريف عيسى بن فليتة بالصراع حول الإمارة على مكة، فقام طغتكين بمحاولة إصلاح الأوضاع خلال مدة وجوده، فأعدم جماعة من العبيد الذين

(١) العاصمي: سمط النجوم، العوالي، ج٤/ ص٢٣٠؛ حرب: الحجاز واليمن، ص٢٩.
(٢) العسيري: المرجع السابق، ص٨٣. (٣) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٥- ١٢٨.
(٤) ابن جبير: المصدر نفسه، ص١٢٧؛ الخزرجي: العسجد، ص١٥٨.

امتدت أيديهم بالأذية إلى الحجاج، وألزم البقية باحترام ضيوف الرحمن وعدم أذيتهم، وأقام الخطبة لأخيه صلاح الدين، وضرب الدراهم والدنانير باسمه، ومنع الزيدية من الأذان بـ(حي على خير العمل) في الحرم[1]، وعلى الرغم من الصرامة التي أظهرها طغتكين في ضبط الأوضاع بمكة سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا فإن تلك الإجراءات لم تدم طويلاً بسبب تغير الأوضاع بعد وفاته، إذ انتقلت إمرة مكة في سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) إلى بني قتادة إثر تدهور أحوال الأشراف الهاشميين وانشغالهم بالصراع فيما بينهم، فاستغل نسيبهم قتادة بن إدريس الفرصة، واستحوذ بواسطة من تجمع حوله من فرسان العرب على حكم مكة، وكان الشريف قتادة سياسيًا بارعًا وقائدًا شجاعًا ورجل إدارة صارمًا، استكثر من المماليك فقوي بهم عسكره، حتى تمكن بمعاونة أبناء عمومته أشراف المدينة من كسر جيش الخليفة العباسي الناصر سنة (٦٠٠هـ/ ١٢٠٢م)، وأجبره على الاعتراف بسيادته على الحجاز[2]، وقد خافته الأعراب في تلك البلاد، وحمى البلاد وأزال عنها العبيد المفسدين، وأحسن إلى أهل مكة والحجاج، إلا أنه انتهج سياسة صارمة وقاسية تجاه الحجاج وأهل مكة في أواخر أيامه، حتى إنه بسبب خلافه مع الأيوبيين في اليمن قام بنهب الحاج اليمني سنة (٦٠٧هـ/ ١٢٠٩م)[3].

ونتيجة لتلك السياسة الاستقلالية احتاج الشريف قتادة إلى حلفاء يدعمونه في حروبه ضد خصومه، لا سيما الأيوبيين الذين دان الأشراف قبله لهم

---

(١) العاصمي: المصدر السابق، ج٤/ ص٢٢١؛ القرشي: غاية المرام، ج١/ ص٥٤٨.
(٢) العاصمي: سمط النجوم، ج٤/ ص٢٢٤- ٢٢٥.
(٣) القرشي: غاية المرام، ج١/ ص٥٦٠؛ العاصمي: المصدر نفسه، ج٤/ ص٢٢٦، ٢٢٨.

بالولاء، ووجد ضالته في زيدية اليمن الأعلى الذين قوي سلطانهم بقيام إمام قوي بين ظهرانيهم هو الإمام المنصور عبدالله بن حمزة، وتمت المراسلات بين الجانبين حول التحالف معًا ضد أي تهديد قد يواجهونه معًا[١].

وقد أزعج هذا التواصل الأيوبيين في اليمن، الذين بات سلطانهم مهددًا من الأشراف الزيدية وأشراف المخلاف السليماني، وأخيرًا أشراف الحجاز، وكلهم تربطهم بعضهم ببعض صلات قوية ومصالح مشتركة، وكان الأيوبيون في اليمن في حاجة إلى حملة تنقذهم من هذا المأزق، وهو ما أدركته السلطات الأيوبية في مصر والشام، فأرسل الملك الكامل في سنة (٦١٢هـ/ ١٢١٤م) حملة عسكرية على رأسها ولده الملك المسعود، وقد سلك الأخير طريق الحجاز، ومر بمكة التي استعد صاحبها قتادة لحربه، وقد جمع الجيوش من كل مكان لذلك، ولكنه فوجئ بأن الملك المسعود لم يقاتله، وإنما أظهر له الود والاحترام، وخلع عليه، ثم واصل سيره إلى اليمن[٢].

وفي الواقع كان هذا التصرف من الملك المسعود في غاية الحنكة والدهاء، إذ لم يجازف بالدخول في معركة مع الشريف قتادة ومعه تلك الجموع الكبيرة مما قد يكبده خسارة فادحة، فضلا عن أنه لا يستطيع الدخول في أية معركة قبل تحقيق الهدف الأساسي من حملته وهو إنقاذ ملك الأيوبيين في اليمن، وبعد ما نجح الملك المسعود في مهمته وعادت اليمن إلى ممتلكات الأيوبيين تفرغ لحرب الزيدية الذين ضعف أمرهم بعد وفاة

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ج١/ ص٣٦٢.
(٢) عبدالعال: الأيوبيون، ص٢٤٣- ٢٤٤؛ حرب: الحجاز واليمن، ص١١٠- ١١١.

الإمام المنصور سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٦م)، فحقق كثيرًا من الانتصارات عليهم، وأما بالنسبة إلى مكة المكرمة فقد استغل الملك المسعود مقتل الشريف قتادة سنة (٦١٧هـ/ ١٢١٩م) فقاد حملة إلى مكة في سنة (٦١٩هـ/ ١٢٢١م) فاجأت أميرها الحسن بن قتادة الذي لم يكن في دهاء والده وحنكته، فتفرقت عنه مماليك أبيه، وبذلك تمكن الملك المسعود من هزيمته وطرده من مكة، ولأول مرة في تاريخ الأيوبيين يعين على مكة أمير من قبل الأيوبيين، وهو الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول، وزوده الملك المسعود بقوة من ثلاثمائة فارس[١].

وقد أحسن الأمير نور الدين إلى أهل مكة وساسهم سياسة حسنة، كما قام بواجبه في الذود عنها ضد مطامع الشريف حسن بن قتادة الذي هاجم مكة على رأس جيش جمعه في ينبع، فتصدى له الأمير نور الدين وهزمه[٢]، وظل نواب الملك المسعود يحكمون مكة في حياته، وعلى الرغم من المآخذ على الملك المسعود فإن مكة نعمت تحت حكمه وحكم نوابه بالأمان، فضرب على يد المفسدين وقطاع الطرق في البوادي، فأمنت السبل، وتدفقت المؤن والأرزاق على مكة من مصر واليمن، فرخصت الأسعار، وازدهرت أحوال البلد، وامتد هذا الازدهار إلى المدينة بفضل هيبة الدولة الأيوبية[٣].

---

(١) القرشي: المصدر السابق، ج١/ ص٥٩٦؛ العاصمي: سمط النجوم، ج٤/ ص٢٣١.
(٢) ابن حاتم: السمط، ص١٧٥؛ العاصمي: سمط النجوم، ج٤/ ص٢٣١.
(٣) الفاسي (الإمام أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام)، تح: لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية - بيروت، د.ط - د.ت، ج٢/ ص٢٣٥- ٢٣٦؛ العسيري: الحياة السياسية، ص١٥٣.

وبعد وفاة الملك المسعود حل مكانه السلطان المنصور نور الدين عمر الرسولي الذي قام بواجبه تجاه البلد الحرام رغم الصراع الذي احتدم بين الرسوليين والأيوبيين حول السيطرة على مكة، فأبطل "...المكوسات والجبايات والمظالم، وكتب بذلك رقعة، وجعلت قبالة الحجر الأسود..."[(١)]، وكان يرسل كل سنة صدقة عظيمة من اليمن إلى مكة يصل بها من كان بمكة من المجاورين - الوافدين - ومن أهل مكة، كما قام السلطان نور الدين بعمل إجراء عسكري بالغ الأهمية، وذلك عندما أمر بعمارة البرك - وهو جبل متصل بساحل البحر فيما بين مكة واليمن - الذي شكل موقعًا عسكريًا استراتيجيًا وخطًا دفاعيًا مهمًا، فعمر فيه المصانع - الحصون - ورتب فيه العساكر الجيدة[(٢)]، كما قام ببناء عدد من الحصون بين مكة والمدينة ورتّب فيها الرتب[(٣)]، وعلى الرغم مما ذكره الخزرجي من أن الغرض من عمارة البرك وتحصينها إنما كان "...لمحاربة بني أيوب..."[(٤)] فإن ذلك لا ينفي أهمية البرك وحصونها بوصفها خطًا دفاعيًا لمكة المكرمة أمام أي هجوم مفاجئ من قبل البحر، فإذا كان غرض السلطان (المنصور نور الدين عمر) من ذلك الإجراء العسكري هو منع استيلاء بني أيوب على مكة؛ فمن باب أولى التصدي لأية محاولة من قبل غير المسلمين - الإفرنج في الشام أو حلفائهم من الأحباش والنوبيين - لمهاجمة المقدسات الإسلامية لا سيما أن أبا شامة قد ذكر في حوادث سنة

---

(١) الخزرجي: العسجد، ص٢٠١.
(٢) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٤٦، ٨٥؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣١٢- ٣١٣.
(٣) الجندي: السلوك، ج٢/ ص٥٤٣.
(٤) الخزرجي: العسجد، ص٢٠٨.

(٦١١هـ/ ١٢١٣م) أن الملك المعظم بن العادل[١] قام بأداء فريضة الحج، وفي اثناء وجوده في الحجاز قام بعمارة البرك والحصون التابعة لها وتجديدها[٢]، فهل كان ما فعله المعظم هو أيضا (لمحاربة بني أيوب)؟

وخلال حكم السلطان المظفر ظل الاهتمام بتأمين الاستقرار السياسي والاقتصادي للحجاز وتوفير الحماية العسكرية للمدينتين الشريفتين كما كانت في عهد والده، فضلا عن تعاونه مع المماليك ودعمهم في جهادهم ضد الصليبيين والمغول، حتى تمكنوا من حصر الخطر الصليبي في الشمال بعيدًا عن البحر الأحمر الذي كان يحتل مكانًا مهمًا في خطط حروب ذلك العصر.

ثانيًا- اليمن ودورها في تأمين البحر الأحمر والحركة الملاحية:

يتمتع البحر الأحمر بموقع جيوبوليتيكي (جغرافي - سياسي) مهم وفريد أضفى نوعًا من التعقيد على العلاقات الإقليمية والدولية بين الدول المطلة عليه، فهو يقع عند نقطة التقاء قارتي آسيا وإفريقيا، كما أنه أشبه ما يكون بحلقة وصل بين الشرق والغرب، وتتصل مياهه بالبحر العربي والمحيط الهندي، ولا يفصله عن البحر المتوسط إلا برزخ بري ضيق[٣].

---

(١) الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب (٦١٥هـ/ ١٢١٧م - ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م): ملك دمشق والشام، كان شجاعًا باسلاً عالمًا فاضلاً، تفرد من بين الملوك بالجمع بين المواظبة على الغزو والاشتغال بأنواع العلوم والحج إلى الحرمين بنفسه؛ انظر: أبو شامة، ذيل الروضتين، ص١٥٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص١٢٤.

(٢) أبو شامة: المصدر نفسه، ص٨٧.

(٣) السلطان: عبدالله عبدالمحسن، البحر الأحمر والصراع العربي- الإسرائيلي "التنافس بين إستراتيجيتين"، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت، ط٣-١٩٨٨م، ص ٣٣.

وتكمن الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر في الآتي:

* أنه واحد من أهم الطرق البحرية العالمية؛ كونه يوفر لقوى إقليمية ودولية إمكانات الوصول إلى البحر المتوسط والمحيط الهندي والمحيط الأطلسي(١).

* اكتسابه أهمية اقتصادية باعتباره شريانًا تجاريًا تجري فيه السفن المحملة بالسلع التجارية بين الشرق والغرب، مما جعله يشهد حركة ملاحية كثيفة منذ أقدم العصور(٢).

* أهميته من الناحية العسكرية، حيث إنه المدخل المفضي إلى الهند وما وراءها من بلاد الشرق الأقصى، مما جعله أقصر ممر مائي بين الشرق والغرب، الأمر الذي تفجرت بسببه العديد من الصراعات الإقليمية والدولية، فضلا عن وجود أكثر من (**٣٧٠**) جزيرة في البحر الأحمر يمكن استخدام معظمها لأغراض عسكرية بوصفها قواعد ومنطلقات للسيطرة على الملاحة في هذا البحر، الأمر الذي يلقي بتبعات ثقيلة على الدولة المطلة عليه والمالكة لتلك الجزر، وتزيد تبعًا لذلك المسؤوليات الدفاعية الملقاة على تلك الدول(٣).

وقد اجتذبت هذه المزايا التي يتمتع بها البحر الأحمر أشكالاً مختلفة من الصراع عليه منذ أقدم العصور، فبعد ما كانت السيطرة على الخط الملاحي من مصر الفرعونية شمال البحر الأحمر إلى أقصى المشرق قاصرة على السفن والمراكب الفرعونية وعرب الجنوب - الذين احتكروا الملاحة

---

(١) حوات: مضيق باب المندب، ص **١٣**؛ السلطان: المرجع السابق، ص **٣٤**.
(٢) حوات: المرجع نفسه، ص **١٣**، جرادات: الأهمية الإستراتيجية، ص **٣٥-٣٧**.
(٣) السلطان: المرجع السابق، ص **٣٠- ٣٨**.

بين الهند والجزيرة العربية - حدث تغير خطير في الميزان السياسي في المنطقة يتمثل في سيطرة الإغريق ومن بعدهم الرومان على مصر وسوريا، وسعي هؤلاء عبر العصور وبكل ما يملكون من نفوذ سياسي وقوة عسكرية إلى بسط نفوذهم على البحر الأحمر، والفوز بنفوذ قوي في تلك المنطقة، ومن ثم السيطرة التامة على حركة الملاحة فيه وفتح الطريق إلى الشرق(١).

وبعد قيام الدولة الإسلامية وتوسع سلطانها ليشمل الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق وغيرها من الأقاليم شرقًا وغربًا؛ اتخذ خلفاء المسلمين على مر العصور سياسة معينة وثابتة تجاه البحر الأحمر تقوم على تأمين الملاحة فيه، وإغلاقه في وجه المراكب والسفن غير الإسلامية، وتطهير جزره من أوكار القراصنة الذين يعيثون في ذلك البحر فسادًا، وكان لليمن دورٌ بارزٌ في تحقيق الأمن الملاحي في جنوب البحر الأحمر، وإظهار هيبة المسلمين في وجه القوى غير الإسلامية في المنطقة والأحباش خاصة، فقد قامت الدولة الزيادية بدور مهم في ضبط السواحل اليمنية والجزر المقابلة لها ومختلف الأنشطة الملاحية قبالتها، ومصادر الثروات كاللؤلؤ والعنبر حتى صارت ملوك الحبشة تهاديهم وتخطب ودهم(٢).

وفي العصر الفاطمي زاد الاهتمام بالحركة التجارية والملاحية في البحر الأحمر لأسباب سياسية واقتصادية، الأمر الذي تطلب بسط سلطانهم على اليمن عن طريق دعاتهم من الصليحيين والزريعيين من بعدهم، فنجح الفاطميون في تحويل تجارة بحر فارس الذي يشهد اضطرابات سياسية

---

(١) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص٣٥- ٤٥؛ سالم: البحر الأحمر، ص٥- ٧.
(٢) عمارة: المفيد، ص٦٥؛ الخزرجي: العسجد، ص٩٨- ٩٩.

وعسكرية إلى البحر الأحمر، مما أدى إلى إثراء موانئ اليمن والبحر الأحمر ثراءً ملحوظًا، نتيجة للعناية التي أولاها الفاطميون لدعم الحركة التجارية والملاحية فيه، ووضعهم عدد من قطع الأسطول الفاطمي تحت خدمة سفن التجار والحجاج لحراستها وتأمين رحلاتها[(١)].

ولكن هذا الانتعاش الذي شهدته الحركة الملاحية في البحر الأحمر تعرض لنكسة خطيرة مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بسبب ظهور الخطر الصليبي في بلاد الشام وتوغلهم في الأراضي الإسلامية، حتى صارت لهم قاعدة أمامية على البحر الأحمر هي ميناء (أيلة)، الأمر الذي شكل تهديدًا خطيرًا للسواحل الشمالية للبحر الأحمر، ومن ثم صارت الملاحة في ميناءي أيلة والقلزم - السويس - محفوفة بالمخاطر بسبب الوجود الصليبي، فصار الفاطميون يعتمدون ميناء القصير جنوبًا على الساحل المصري، ثم ميناء عيذاب الذي لم يكن قبل ذلك شيئًا مذكورًا كميناء رئيسي لملاحة البحر الأحمر بدل ميناء القلزم[(٢)].

وهكذا بات البحر الأحمر مهددًا من قبل الصليبيين بعدما كان موصدًا في وجه السفن غير الإسلامية، ولولا انشغال الصليبيين في تلك المدة بتوسيع رقعة مملكتهم والاستيلاء على مناطق أكثر حيوية وأهمية بالنسبة إليهم لحدث ما لا تحمد عقباه، لا سيما أن السلطات الإسلامية في مصر والشام والجزيرة العربية تعيش حالاً من الفوضى السياسية والصراع العسكري فيما بينها، ولكن هذا الوضع لم يدم، إذ قيّض الله لهذه الأمة

(١) ربيع: البحر الأحمر، ص١٠٥.
(٢) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص٧١؛ ربيع: البحرالأحمر، ص١٠٧- ١٠٨.

رجالاً حملوا على عاتقهم مسؤولية الذود عن حياض المسلمين منهم صلاح الدين الأيوبي، الذي كانت مخططات الصليبيين تؤرق مضجعه، وكان يدرك إدراكا تامًا خطورة خطتهم الرامية إلى بث الفوضى والاضطرابات في البحر الأحمر وتهديد الملاحة فيه، فيقطعون بذلك أي تواصل بين جناحي الدولة الإسلامية، في الوقت الذي تمكنوا فيه من احتلال ساحل بلاد الشام ليضمنوا دوام الاتصال بأوروبا الرحم الأصلي للحروب الصليبية، فضلا عما يلحقه الوجود الصليبي في البحر الأحمر بالتجارة الإسلامية من الأضرار.

وبناءً على ذلك كان من أولى الأعمال العسكرية التي قام بها إثر توليه الوزارة في مصر تحرير ميناء (أيلة) وجزيرة فرعون من الاحتلال الصليبي سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)، وقد علق ابن تغري بردي على أهمية استرداد أيلة بقوله: "...وكان على درب الحجاز منها خطر عظيم..."[١]، إلا أن ذلك النصر لا يعني انتهاء التهديد الصليبي للبحر الأحمر، لا سيما مع وجود حصنين عتيين على مسافة غير بعيدة من سواحل البحر الأحمر الشمالية هما الكرك والشوبك، مما يمكنهم من إعادة الكرة، وفي هذه المرة سيكون ردهم عنيفًا ومدويًا، كما أن صلاح الدين - وهو المشهور ببعد نظره وتفكيره الاستراتيجي - لم يكن ليقنع بهذا الإنجاز العسكري، ولذا سعى إلى التمكين لسلطته في أنحائه كافة ليفوز بالميزات الاستراتيجية والاقتصادية التي تؤمنها له سيطرته على ذلك البحر، وعلى رأسها القضاء على احتمالات اتصال الصليبيين بالأحباش والنوبيين وتعاونهم ضد المسلمين[٢].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥/ ص٣٦٥.
(٢) جرادات: الأهمية الاستراتيجية، ص٧٦؛ السروري: الحياة السياسية، ص٢٨٢.

ولهذا الغرض أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه على رأس حملة برية من مصر لفتح بلاد النوبة والسيطرة على ميناء سواكن[١]، وكذلك حملة اليمن التي جاءت من إدراكه لأهمية ذلك الإقليم وتأمينه مدخل البحر الأحمر الجنوبي وحرية الملاحة فيه، وحماية سواحله من الأطماع الصليبية، ولذلك صار من الضروري ضم اليمن إلى الدولة الأيوبية[٢].

وقد آتت هذه الاستراتيجية ثمارها على يد سيف الإسلام طغتكين الذي تمكن من توطيد الحكم الأيوبي في اليمن وتنظيم شؤون ولايته، فأمر بأن تقوم الشواني[٣] التي جلبها أخوه توران شاه معه إلى اليمن بمرافقة السفن التجارية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، بعد أن كانت راسية في ميناء عدن لا فائدة منها تضربها الشمس، الأمرالذي كان له بالغ الأثر في القضاء على القرصنة البحرية وضمان حرية الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي[٤].

وقد سار خلفاء طغتكين على طريقته في مطاردة القراصنة وتطهير جزر البحر الأحمر والمحيط الهندي من أوكارهم، من ذلك ما قام به الأتابك سنقر في سنة (٦٠٢هـ/ ١٢٠٤م) عندما انقطعت التجارة الشرقية عن الوصول إلى ميناء عدن بسبب ازدياد نشاط القراصنة في المحيط الهندي،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٨٧.
(٢) ربيع: البحر الأحمر، ص١٠٥- ١٠٦؛ جرادات: المرجع السابق، ص٧٦- ٧٧.
(٣) الشواني: جمع شيني وشونة، وهي سفن حربية مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وبها مخازن للمؤن والمياه العذبة؛ سلطان (توفيق): دراسات في النظم الإسلامية، وزارة التعليم - جامعة الموصل، د.ط - ١٩٨٨م، ص١٦٧.
(٤) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص١٤١- ١٤٢؛ ابن حاتم: السمط، ص١٣١؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص٦١- ٦٢.

فقام بإرسال حملة بحرية لحماية التجارة في المحيط الهندي وتطهيره من القراصنة[١].

وفي العصر الرسولي باتت اليمن تحت سلطان دولة مركزية قوية بسطت سيطرتها على معظم أجزاء البلاد، وقد باشر سلاطين بني رسول أمور دولتهم بهمة وحزم، وبما أنهم ورثوا ممتلكات الأيوبيين فقد ورثوا معها المسؤوليات والتبعات تجاه أمن المياه الإسلامية المترتبة على ذلك، وقد اشتهر بنو رسول بمتابعتهم ومراقبتهم تخوم بلادهم وسواحلها، حتى أثنى ابن فضل الله العمري على "...شدة ضبطهم لبلادهم ومن فيها، واحترازهم على طرقها برًا وبحرًا من كل جهة، فلا يخفى داخل يدخل إليها ولا خارج يخرج منها، وللتجار عندهم موضع جليل..."[٢].

وعلى الرغم من تراجع الخطر الصليبي خلال القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) وانحسار مملكتهم إلى ساحل بلاد الشام؛ فإن الخوف من إثارتهم حلفاءهم من النوبيين والأحباش ظل هاجسًا يؤرق مضجع حكام الدول الإسلامية المطلة على البحر الأحمر، وأكبر دليل على ذلك هو الشكوى التي تقدم بها تجار الكارم إلى الظاهر بيبرس بشأن قيام حكام سواكن ودهلك بمصادرة أموال من يموت من التجار في بلادهما، فبعد فشل الجهود السياسية أرسل حملة تمكنت من الاستيلاء على ميناء سواكن (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م)، وأقام فيها حامية مملوكية بشكل دائم، وبذلك

(١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٦٦؛ ابن حاتم: السمط، ص١٣١؛ العسيري: الحياة السياسية، ص٢٨٢.
(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص٥٦.

حرمت مملكة مقرة النوبية من منفذها البحري الوحيد على البحر الأحمر[١].

وفي سنة (٦٧١هـ/ ١٢٧٣م) شن داود ملك النوبة هجومًا على ثغري عيذاب وأسوان، وقتل واليها وقاضيها، وعاد إلى بلاده محملاً بالغنائم والأسرى، فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن أمر والي قوص بقيادة حملة على مملكة النوبة تمكنت من اجتياح عاصمتهم دنقلة وقتل وأسر عدد كبير من أهلها، وظل الصراع محتدمًا بين المماليك ومملكه النوبة، حتى تمكن المماليك من إقصاء الملك داود عن عرش النوبة وإقامة ابن أخته مشكد (شكنده) الذي لجأ إلى المماليك، فأرسلوا معه حملةً عسكرية تمكنت من هزيمة داود وطرده سنة (٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م)[٢].

وبالنسبة إلى اليمن لم يحدث صدام مباشر بينهم وبين الأحباش؛ نظرًا لانشغال الأخيرين بالصراع في بلادهم حول السلطة[٣]، فضلا عن الهيبة التي صنعها السلطان المظفر لدولته سواء بالطرق الدبلوماسية أو العسكرية، حيث قام في سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) بعمل مظاهرة عسكرية للبحرية اليمنية في أثناء أدائه فريضة الحج، فخرج من اليمن إلى مكة المكرمة، وكان يسير برًا، والمراكب تسايره بحرًا بالأطعمة والعلوفات[٤]، وعلى الرغم من أن الهدف الأساسي من تلك المظاهرة البحرية هو إرهاب المماليك وحلفائهم

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١/ القسم الثاني/ ص٥٠٦،٥٥٨؛ سالم: البحر الأحمر، ص٩١.

(٢) ابن الفرات (محمد بن عبدالرحيم بن علي بن محمد): تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت، د.ط - ١٩٣٩م، ج٧/ ص٤٧؛ سالم: البحر الأحمر، ص٩١- ٩٣.

(٣) الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص٩٨.

(٤) الخزرجي: العقود، ج١/ ص١٣٣- ١٣٤؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٢٧.

من أشراف مكة وكف أيديهم عن المساس بالسيادة الرسولية على الحجاز؛ فإنها تضمنت كذلك رسالة موجهة إلى كل من تسول له نفسه تهديد أمن البحر الأحمر وحرية الملاحة فيه[١].

وفي سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م) أرسل المظفر سفيرًا إلى ملوك فارس بهدية جيدة، وصحبه في سفره جماعة من التجار، فتلاعبت بهم الأمواج بساحل ظفار التي قام صاحبها سالم بن إدريس الحبوضي بمصادرة الهدية والأموال والبضائع، فلما وصل الخبر إلى المظفر عد ذلك انتهاكًا خطيرًا لحرمة رسوله ولأمن الملاحة البحرية بمختلف صورها في المنطقة، فأرسل إليه يعاتبه في ذلك ويعلمه بشناعة فعلته وأنها قطع للسبيل، ومخالفة للعهود بين بني رسول وحكام ظفار حول العمل معًا لضمان حرية الملاحة في المحيط الهندي وبحر العرب[٢].

إلا أن صاحب ظفار أبى واستكبر واستهزأ برسالة المظفر إليه، ولم يكتفِ بذلك بل قام بتحريض صاحب الشحر على الخروج على المظفر، فمال إليه هربًا من الخراج المفروض عليه سنويًا من قبل الدولة الرسولية، كما قام الحبوضي بمهاجمة ساحل عدن[٣]، فثار غضب المظفر، حيث عد ذلك تهديدًا لسمعة الدولة الرسولية ومكانتها بين دول المنطقة، فضلا عما يشكله من انتهاك لحرمة لسواحلها والأمن الملاحي في المنطقة، الأمر الذي قد يؤدي إلى بسط سلطان آل الحبوضي على السواحل الجنوبية وتحريض الزعامات المحلية على الخروج على بني رسول إذا لم يقم المظفر برد

---

(١) الجرافي (القاضي عبدالله عبدالكريم): المقتطف من تاريخ اليمن، تقديم: إلياس عبود، مؤسسة دار الكتاب الحديث - بيروت، ط٢- ١٩٨٤م، ص٩٠.
(٢) الخزرجي: العسجد، ص٢٥٢.
(٣) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٣٠٩؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٢٩.

حاسم وسريع على تلك الاعتداءات.

فأمر السلطان المظفر على الفور بعمارة الأسطول على أن يضم أنواع القطع البحرية المعروفة كافة، فعمرت الشواني والمراكب والطراريد[١] حتى "...ملأ البر والبحر خيلاً ورجلاً وأزوادًا، وسارت العساكر ثلاث فرق، فرقة في البحر وهم معظم الرجل... وسارت الفرقة الثانية... على طريق حضرموت... وسارت الفرقة الثالثة على طريق الساحل... يتناولون من المراكب ما أرادوا من الطعام والتمر وسائر الحبوب والحوائج خانات، ثم أنواع السلاح من القنا والسيوف والزرد والبيض... وسائر أنواع العدد على اختلاف أحوالها من المنجنيقات..."[٢]، وقد بلغ عدد القطع البحرية ألف قطعة تضمنت الشواني والسفن والطراريد وعددًا كبيرًا من الزوارق (السنابيق) - مما يفسر مبالغة المصادر في عدد قطع الأسطول -[٣].

وقد نجحت تلك الحملة البرية والبحرية الكبرى في تحطيم إمارة بني الحبوظي وإخضاع كل الساحل الجنوبي لليمن لسلطان الدولة الرسولية، الأمر الذي أحدث دويًا هائلاً في المنطقة حتى "...ارتعدت الأقطار القصية هيبة للسلطان، وامتلأت من خوفه قلوب ملوك فارس وأصحاب الهند والصين، لما رأوا من علو همته وعظيم نقمته، فأرسل صاحب عمان بهديته... ووصلت هدايا صاحب الصين وصاحب البحرين إلى زبيد..."[٤].

(١) الطراريد: جمع طرادة، وهي سفن حربية صغيرة سريعة الحركة؛ سلطان: دراسات، ص١٦٧- ١٦٨.
(٢) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٢١٠- ٢١١.
(٣) الخزرجي: العسجد، ص٢٥٤، ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٢٩- ٣٣٠.
(٤) الخزرجي: العقود، ج١/ ص٢١٣.

وهكذا أثبت بنو رسول جدارتهم بحكم اليمن والإشراف على سواحله الجنوبية والغربية بكفاية واقتدار، باسطين حمايتهم ورعايتهم للملاحة البحرية في المنطقة ضامنين استمرارها وتدفقها في ذلك الشريان المائي المهم (البحر الأحمر).

❁ ❁ ❁ ❁ ❁